

نکستین نام

الحمد لله

زَكَرِيَّا تَامَرَ

الرَّعْدُ
تَفْهِيمٌ

قصص

منشورات مكتبة النوري

دمشق

الطبعة الاولى : ١٩٧٠

الطبعة الثانية : ١٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

صمم الغلاف : نذير نبعة

قصص الكتاب

٧	السجن
١٣	الصقر
١٩	الذي أحرق السفن
٢٥	المتهم
٣١	اللحى
٣٧	النسيان
٤١	عباد الله
٤٧	النا بالم النابالم
٥٥	جوع
٦٥	الشرطي والحصان
٧١	العرس الشرقي
٨١	الاطفال
٨٩	آخر الرايات
٩٥	خضراء
٩٧	الهزيمة
١٠٣	الكذب
١٠٧	في يوم مرح
١١٥	الرميد

السجن

كان مصطفى الشامي يحب المواويل والنجوم والعشب
الاخضر غير أنه تعب من بناء البيوت ، وستفمض
عيناه بعد قليل ، فالموت وردة من ثلج ، مختبئة في
شرايينه ، وها قد جاء صباحها .

وابتسم بغبطة اذ خطر له أن البيوت التي شيدها لا بد
ستمسي أنقاضا في اثر غيابه ، واندفع يركض متوغلا
في شوارع صفراء ، مناديا الهواء بصوت مفعم
بالغضب والدهشة والأسى . وهكذا نأى عن البيوت

والمواويل والعشب الاخضر ، وتمّ دفنه بعد ساعات
في مقبرة محاطة بالمنازل . ولقد ولولت زوجه ليا
وانتجت طويلا غير أنها كفت عن البكاء لما سادت
ظلمة الليل ، واضطجعت وحيدة على سرير عريض ،
وتخيلت رجالا ثيابهم بيضاء ، يقودون زوجها الى
أرض فسيحة خضراء . وكان الحزن آنذاك حمامة
ترتدي ثياب الحداد وتطير هلعة تحت أمطار غزيرة .
وأقبل الكرى طفلا كئيب العينين ، تحمل يده زهرة
سوداء وأغنية من مخمل دافئ ، لكن جرس الباب
رنّ رنيناً حاداً متواصلاً ، فاستفاقت ليا من نومها ،
ورفعت رأسها عن الوسادة ، وأرهفت السمع وهي
تفرك عينيها بأصابعها ، وكان جرس الباب ما زال
مستمراً في الرنين ، فصاحت بصوت ممطوط يسيطر
عليه التثاؤب : « من ؟ » .

وبلفها حالا صوت خشن أمر مألوف : « افتحي » .
فوثبتت تاركة السرير ، وهرولت حافية القدمين
مجتازة باحة البيت المغمورة بضياء القمر، وسارعت
نحو الباب ، وفتحته بحركة سريعة مفعمة بالتوجس
واللهفة ، فألفت زوجها واقفاً كشجرة بلا أغصان ،
متلفحاً بكفنه الابيض .

ودلف مصطفى الشامي في الحال الى الداخل متجههم الوجه ، وقال مخاطباً لميا : « اقفلي الباب جيداً فاللصوص كثيرون في هذه الايام » .

فأطاعت لميا ، وأغلقت الباب باحكام ثم تبعته مصطفى الى مخدع النوم .

يتمدد مصطفى على السرير . يقول مصطفى للميا بصوت مجهود : « لا تضيئي النور » . يصمت مصطفى لحظة ثم يسأل لميا : « هل كنت نائمة ؟ » .

لا تتفوه لميا بكلمة . تستلقي لميا بجوار مصطفى لاهثة الانفاس . مصطفى يلتصق بها ويقول بنهجة مداعبة : « دفئيني » .

صوت مصطفى يتبدل ، يفقد مرجه ويتحول الى صوت أجوف مذعور متذمر : « لم أستطع النوم هناك » . تهمّ لميا بالكلام غير أن فمها كان في تلك اللحظة حجراً صلباً . يتكلم مصطفى ، وصوته طير أسود ملطخ بالطين : « حظي طيب لأن المقبرة ليست بعيدة عن البيت ولم أصادف في أثناء سيري أي دورية شرطة . لكم أشفق على الناس الذين يدفنون في مقابر بعيدة عن بيوتهم فيضطرون الى النوم في قبورهم » .

صوت مصطفى يخفت تدريجياً ليتلاشى بعد هنيهات

تاركاً لميا وحدها مفتوحة العينين تحملق الى السقف .
وفجأة دهم نظراتها دعر عارم لحظة تناهى اليها قرع
شديد على الباب ، ووجدت نفسها تهرع نحو الباب
وتفتحه بتردد فاذا بشرطيين يرتديان ثياباً بيضاً ،
وبادر أحدهما يقول لها : « أين زوجك مصطفى
الشامي ؟ لماذا سمحت له بالنوم والعودة ؟ ألا تعرفين
أن فعلتك هذه مخالفة للقانون ؟ » .

ودخل الشرطيان البيت ، واتجها فوراً الى الغرفة ،
فدخلها وهما يدمدمان ساخطين ، وما ان أبصرا
مصطفى حتى راحا يشتماناه ، فاستيقظ مرتاعاً ،
وأعول مستغيثاً ، فلم يأبه الرجلان له ، وأنزلاه عن
السريـر وحملاه كأنه قطعة من الخشب ، وغادرا
المنزل بينما كان بكاء مصطفى يشدد ويتصاعد عبر
سكينة الليل ولولة لا نهاية لها .

ولم تمض سوى لحظات حتى هيمن السكون ثانية على
البيت ، فعاودت لميا الاستلقاء على السريـر ، ولكنها
نهضت بعد لحظات وأضاءت النور ، ووقفت أمام
المرآة ، ونظرت الى وجهها ملياً ثم ابتسمت وأطفأت
النور ، وتمددت على السريـر مستسلمة لنوم عميق ،
وظل وجهها محتفظاً بالابتسامة .

وكان مصطفى الشامي قد مثل آنئذ أمام قاض وديع
الابتسامة ، وجهه متجدد ، وعمره آلاف السنين ،
وقد وجه الى مصطفى تهمة الفرار ، ولم يجد
مصطفى ما يرد به سوى أن القبر مكان غير صالح
للانسان ، فضحك القاضي مسروراً ثم نطق حكمه .
وبعدئذ انقض الرجال البيض الثياب على مصطفى
واقترادوه الى أرض فسيحة خضراء ، وهناك أنبىء
أنه سيشغل في بناء القصور ، فلم يفه بكلمة ولم
يطلق صرخة استغاثة وتوسل ، انما تلفت فيما حوله
كحيوان سمع انصفاق باب القفص ، وكانت عيناه
طفلين مذبوحى العنق .

وفي تلك اللحظة كانت الارض الجرداء والارض
الخضراء ، لهما سماء واحدة مصنوعة من قضبان
فولاذية .

الصقر

مات أبي قبل عام ، وها اليوم أذهب لزيارته ، وأقف
بين الأضرحة البيض متصنعاً الخوف والحزن
والانكسار ، وأتلى سورة الفاتحة بصوت خاشع ،
وأهبها لروحه ، فأسمعه يصيح بحنق : « يا ولد ..
أخجل .. كف عن التدخين » .
فأرتبك ، وأرمي السيجارة أرضاً ، وأسحقها بكعب
حذائي بينما يتابع أبي صياحه متسائلاً : « أما
تزوجت ؟ » .

فأقول له متعجباً : « ولماذا أتزوج ؟ ! » .

فيقول لي بنزق : « الأبناء زينة الحياة الدنيا » .
فأقول له بعناد واصرار : « لن أتزوج ولا أريد أن
أكون أباً » .

فيزعق غاضباً ، فأسارع أقول له بمرح : « لا تزعل
يا أبي . الزعل يضر بصحتك » .

فيشتد غضب صيحاته ، وأهرول خارجاً من المقبرة ،
وأعود الى البيت ، وهناك ألفت حبيبتي مستلقية
على السرير مغمضة العينين ، فطلبت منها غسل
جواربي ، فرفضت زاعمة أنها متعبة ، فذبحتها دون
أن ترتجف يداي ، وطردت الشمس من السماء ،
وظلمت وحيداً على سطح الارض ، شرياناً أسود
اللون ، لا يملك فماً يصرخ ، وتطأه جياد ليل أعمى .
ولما أقبل الصباح ، قصدت المقبرة بلهفة غير أن أبي
ظل صامتاً ، فاضطرت الى مغادرة المقبرة ، محني
الظهر ، متعب الخطا ، وسرت في الشوارع رجلاً نحيلاً
يرتعش في شرايينه حب عارم للموسيقى والبحر ،
غير أن رجال الشرطة الذين لا يحبون الموسيقى
ويكرهون البحر ، اعترض واحد منهم طريقي ،
وابتدرني قائلاً بصوت صارم خشن : « أنت تهين

البلد . »

فأدركت حالا أن الاطفال ليسوا وحدهم يخافون من الشرطي ، وقلت بصوت حاولت جهدي أن أخفي ارتجافه : « أنا ؟ ماذا فعلت ؟ » .

« - ظهرك . . ظهرك المقوس يسيء الى سمعة البلد .
الجياع والمرضى وحدهم يسرون مثلك » .
« - أنا جائع ومريض فعلا » .

« - وقح . تقول انك جائع ومريض ؟! كلامك هذا يتضمن هجوماً صريحاً على الدولة » .

« - آسف آسف . لم أقصد أن أتجهم على أحد » .
فأشار باصبع طويلة الى وجهي ، وقال : « ووجهك ؟ » .
« - وجهي ؟ ما به ؟ » .

« - أنظر الى مرآة . وجهك عابس . لماذا ؟ » .
« - لأنني بلا عمل » .

« - أسكت . أتجرؤ على انتقاد القوانين ؟ » .
« - أنا ؟ ! » .

« - هس . اقفل فمك وابتعد عن وجهي واحذر أن
تمشي في الشوارع » .

فسرت فوراً بخطى حيوان مطارد منطلقاً نحو البيت .
وكانت أشجار الشوارع صفراء ، عارية الاغصان ،

بلا عصافير ، فالعصافير هجرت أعشاشها وأمست تعمل في ملهى ليلي .

وأبصرت في أثناء مسيري امرأة تسأل ولداً صغيراً عن سبب بكائه ، فقال لها : « ضربني الاولاد » . فربتت المرأة على رأسه ، وقالت بجنو : « كف عن البكاء ، واضرب من يضربك » .

فاستولى عليّ الفرح ، فالصقر الذي يحيا في بيوت الفقراء سيصعد يوماً الى أعلى ويمتلك سماء المدينة غير أن فرحي انطفأ بعد قليل اذ اعتقلني رجال الشرطة لأنني كنت أتشعب في الشارع ، واقتادوني تواء الى المحكمة ، وهناك سألني القاضي : « هل كنت فعلاً تتشعب ؟ » .

وكانت الشمس آنذاك خارج المحكمة عصفوراً ذهبي الجناحين ، فتشعبت ، وقلت للقاضي : « نعم . كنت أتشعب » .

فقال القاضي بلهجة غاضبة : « اذن أطلب ما تشتهي » . فأخبرته أنني لا أشتهي شيئاً ، فمسح جبينه بمنديل من حرير أبيض ، ثم نطق حكمه ، وبعدئذ غادرت قاعة المحكمة يحيط بي عدد من رجال الشرطة ، وكانت بانتظاري سيارة تشبه تابوتاً عتيق الخشب ،

تولت نقلني الى ضفة نهر من الانهار السبعة ، وهناك
أوثقني رجال الشرطة بالحبال ، وربطوا بقدمي
حجرين ثقيلين ، ثم قذفوا بي الى النهر ، ففصت حالا
في مياهه مندفعاً الى القاع مغمض العينين والفم
محاولاً أن أتخيل مدينة تحترق تحت سماء خضراء
وقمر أسود . وعندما أراد فمي أن ينادي أمي
مستغيثاً ، خنقت المياه صرخته ، وأجبرته على
الصمت . وهكذا حرمت التثاؤب تاركاً الشمس
تشرق كل صباح .

الذي أحرق السفن

١ - الاعتقال

الأشجار الخضراء في الشارع كفت عن الغناء لحظة
تحلق عدد من رجال الشرطة المتجهمي الوجوه حول
رجل يمشي على الرصيف سيفاً هرماً ، رمحاً متعباً ،
آن له أن يخلد الى الراحة بعد انتصاره في آلاف
المعارك ، وابتدره واحد منهم قائلاً له بلهجة فظة :
« أعطنا هويتك » .

فتقبل الرجل لهجة الشرطي باستنكار ، وأوشك أن

يستسلم لحق عارم ، لكنه اكتفى بالابتسام باستعلاء
ومد يده الى جيبه ، وأخرج هويته ، وقدمها للشرطي
الذي ألقى عليها نظرة سريعة ثم قال متسائلاً : « أنت
اذن طارق بن زياد ؟ » .

فأجاب الرجل باعتزاز : « نعم أنا طارق بن زياد » .
عندئذ قال الشرطي ساخراً : « هلا تفضلت
بمرافقتنا ؟ » .

« - الى أين ؟ » .

« - الى المخفر » .

« - المخفر ؟ ولماذا ؟ » .

« - مطلوب للتحقيق » .

« - أنا ؟ أنا طارق بن زياد ؟ ! » .

« - لا يهمنا من تكون . أنت الآن شخص تقضي
الاورامر باعتقالك حياً أو ميتاً » .

فقطب طارق بن زياد جبينه بينما كان الدم المتدفق
في شرايينه رعداً شرساً ، غير أنه لم يكذبهم
باستئناف سيره حتى طوقه رجال الشرطة وأمسكوا
به ، فحاول الافلات من أيديهم ، فبادروا يضربونه
بقسوة وتشف حتى أرغموه على الكف عن المقاومة ،
وتهاوى أرضاً يغمره الخجل والدم .

في اليوم الاول خلق الجوع

في اليوم الثاني خلقت الموسيقى

في اليوم الثالث خلقت الكتب والقسط

في اليوم الرابع خلقت السجائر

في اليوم الخامس خلقت المقاهي

في اليوم السادس خلق الغضب

في اليوم السابع خلقت العصافير وأعشاشها المخبأة

في الاشجار

وفي اليوم الثامن خلق المحققون ، فانحدروا تواء الى

المدن ، وبرفقتهم رجال الشرطة والسجون والقيود

الحديدية .

« طارق بن زياد . أنت متهم بتبديد أموال

الدولة » .

« - مخطئون . أنا لم أبدد أية أموال » .

« أأست أنت الذي أحرق السفن ؟ » .

« - حرق السفن كان لا بد منه لكسب النصر » .

« لا نريد سماع أعذار . أجب عن سؤالنا فقط .

هل أأرقت السفن أم لم تحرقها ؟ » .

« - أنا أأرقت السفن .. » .

« وأحرقتهادونما اذن ؟! لماذا لا تجيب ؟ هل حصلت على اذن من رؤسائك بحرق السفن ؟ » .
« - اذن ؟! الحرب تختلف عن الكلام في المقاهي والشوارع » .

وتأمل طارق بن زياد بعينين مفعمتين بالازدراء والنقمة وجوه المحققين المحيطين به ، ثم سألهم :
بهدوء : « أين كنتم وقت الحرب ؟ » .
« كنا نؤدي واجبنا » .

« نحن أيضا حملنا السلاح » .
فصاح طارق بن زياد بصوت نزع : « حملتم السلاح وجلستم وراء المكاتب تحتسون الشاي والقهوة وتتحدثون عن الوطن والنساء » .
فضحك المحققون ثم تعالت أصواتهم جوفاء صارمة باردة :

« أنت خائن » .
« حرق السفن كان ضربة لقوة الوطن » .
« من الذي استفاد من حرق السفن ؟ لا أحد سوى العدو » .

« تكلم . السكوت لن يرفعك » .
« لدينا الوثائق التي تثبت خيانتك وتعاونك مع

العدو » .

« الشعب يعرف كيف يعاقب الخونة » .

وهجم البحر والأعداء ، وامتزجا بصرخة رجل :

« البحر وراءكم والعدو أمامكم » .

فصاح طارق بن زياد بصوت متهدج : « ولكني أنا

الذي هزم الأعداء » .

فقليل له ان ما يقوله لا علاقة له بالتهمة الموجهة اليه .

٣ - مشروع خطبة

... ومن أجل أن يظل الوطن حراً سعيداً ، عشتم أيها

المواطنون الشرفاء مئات السنين بلا خبز ، عشتم بلا

حرية ، عشتم بلا كرامة ، نسيتم الابتسامة ، كرهتم

الورد والقمر وأغاني الحب ، فحمى الله اليوم

وطننا الغالي من أخطار الخونة المتآمرين مع العدو .

٤ - الاعدام

هربت النجوم، فهاهم قد أتوا ، وفتحوا باب الزنزانة

ودلفوا الى داخلها جرأداً جائعاً ، ولم يدهشوا عندما

ألفوا طارق بن زياد جثة هامدة ، انما سارعوا

ينقلونه الى ساحة المدينة ، وهناك تلوا الحكم باعدامه

شنقاً ، ثم سألوه عن رغباته الاخيرة ، فلم يفه بكلمة ،

فاعتبروا صمته دليلاً على عدم وجود ما يرغب فيه،
وبعدئذ تدلى مشنوقاً -

٥ - من مواطن مثالي

الى السيد مدير الشرطة :

خضوعاً لاوامركم ، أرجو السماح لي أن أموت .

المتهم

دخل شرطي بدين الى المقبرة ، ومشى بضع خطا مترددة بين الاضرحة البيض ، ثم وقف حائراً لحظة ، صاح بعدها بصوت ممطوط : « عمر الخيام » .
لم يجب أحد ، فأخرج من جيبه منديلاً أبيض وسخاً ، وتمخط في طياته ثم كوره وأعادته الى جيبه ، وصاح بصوت حانق : « عمر الخيام .. عمر الخيام .. أنت مطلوب للمحاكمة » .
فلم يجب أحد ، ففادر الشرطي المقبرة عائداً الى

مخفّره ، وهناك كتب تقريراً وصف فيه ما حدث مؤكداً أن عمر الخيام رفض حضور المحاكمة ، وقدم تقريره الى رؤسائه الذين تجهمت وجوههم استنكاراً ودهشة ، وبادروا الى اصدار أوامرهم ، فانطلقوا الى المقبرة عدد من رجال الشرطة يحملون المعاول والرفوش ، فنبشوا قبر عمر الخيام ، وأخرجوه من تحت التراب متهدلاً مغبراً مهترئ اللحم ، وحملوه الى قاعة المحكمة حيث مثل أمام القاضي .

ولقد قال القاضي بلهجة وديعة وقور : « أنت يا عمر الخيام متهم بكتابة شعر يمجّد الخمرة ويدعو الى شربها ، وبما أن بلادنا تطمح الى تحقيق الاستقلال الاقتصادي ، وقوانينها تمنع استيراد البضائع الاجنبية ، وبما أن بلادنا تفتقر الى معامل تصنع الخمرة ، فان شعرك يُعتبر تحريضاً على المطالبة باستيراد البضائع الاجنبية ، يعاقب عليه القانون دون هوادة ، فهل تقرّ وتعتزّ بذنبك ؟ لماذا لا تجيب ؟ تكلم . السكوت مؤذ . حسناً . سكوتك يدل على انك تترك للتهمة . اذن سنحاول الان أن نعرف ان كنت بريئاً أو مذنباً فالعدالة هي غايتنا . أولاً . . من يكتب الشعر لابد من أن يتقن الكتابة والقراءة .

هل تجيد القراءة والكتابة ؟ أنت تنكر !؟ اذن سنستدعي الشهود .

الشاهد الاول : (صاحب مكتبة) : « المتهم كان يشتري من مكتبتي كتباً كثيرة العدد » .

القاضي : « أي نوع من الكتب كان يشتري ؟ » .

الشاهد الاول : « كان يشتري كتباً متنوعة الموضوعات

ولكنه كان يفضل الكتب التي تتحدث عن الحب » .

القاضي : « هاها .. اذن كان يحب الكتب الجنسية ؟!

رحمة الله على الاخلاق الحميدة . قل لي : ألم يكن

يشتري كتباً سياسية ؟ » .

الشاهد الاول : « الكتب السياسية !؟ أقسم أن يدي

لم تمس يوماً كتاباً سياسياً . وربما كان يشتريها من

مكتبة أخرى » .

القاضي : « اذن كان يشتري كتباً !؟ » .

الشاهد الاول : « وكان يشتري أيضاً ورقاً أبيض

وأقلاماً » .

القاضي : « الله أكبر . لقد زهق الباطل وانتصر

الحق . المتهم لو لم يكن يعرف القراءة والكتابة لما

أنفق ماله على شراء الكتب والورق والأقلام » .

الشاهد الثاني (امرأة هرمة) : « كل ما أعرفه هو

أن المتهم لا يحب سوى الكلمات وقد أخبرتني امرأة كانت تحبه أنه اعترف لها أنه يحب الكلمات أكثر من حبه لاجمل امرأة في الدنيا .

القاضي : « يحب الكلمات ؟! ياله من شذوذ ! المواطن الصالح يحب أمه والحكومة فقط » .

الشاهد الثالث (صحفي) : « اطلعت على أشعار المتهم فوجدتها تخلو من أي مديح لمحاسن الحكومة » .
القاضي : « هذا برهان قاطع على أن المتهم لا يحب الشعب » .

الشاهد الرابع (رجل له لحية طويلة) : « أقسم بالله أنني سمعت بأذني اللتين سيأكلهما الدود بعد موتي ، سمعت المتهم يقول ان الخمرة تهزم الحزن » .
القاضي : « هذا كلام يصبح خطيراً جداً اذا ثبت للمحكمة أن الحزن متفش بين الناس » .

الشاهد الخامس (رئيس مخفر شرطة) : « وردتنا تقارير كثيرة حول النشاط الهدام الذي يقوم به المدعو الحزن ، ولكننا لم نتمكن حتى الآن من اعتقاله ولا يزال البحث عنه جارياً » .

الشاهد السادس (سجين) : « الحزن هو الذي أغرانى بأن أطالب أن أحيأ حراً » .

الشاهد السابع (سجين) : « الحزن أرغمني على شتم الحكومة » .

الشاهد الثامن (سجين) : « الحزن هو الذي دفعني الى الاشتراك في مظاهرة » .

الشاهد التاسع (سجين) : « الحزن هو الذي حرضني على أن أحاول الهرب من السجن » .

الشاهد العاشر (سجين) : « الحزن وحده جعلني أكره رجال الشرطة » .

القاضي : « لقد أثبتت افادات الشهود أن أشعار عمر الخيام ليست الادعاء صريحة للخمرة ، ودعوة سافرة الى استيراد البضائع الاجنبية ، وتنفيذاً لمخطط مشبوه يهدف الى اشارة الشغب ، كما ان افادات الشهود أثبتت أيضاً تعاون عمر الخيام مع الحزن الذي تبين للمحكمة أنه ليس سوى جاسوس من جواسيس الطابور الخامس ، يستخدمه أعداؤنا من أجل تعكير الامن وبث الاضطراب » .

وسكت القاضي هنيهة متنهداً بارتياح وغبطة ثم استأنف كلامه فحكم على عمر الخيام بمنعه من كتابة الاشعار منعاً باتاً .

وتولى رجال الشرطة نقل عمر الخيام الى المقبرة ،

وأعادوه الى حفرتة ، وأهالوا فوقه التراب بعد أن
أتلفوا ما يملك من أوراق وأقلام غير أن الحزن ظل
طليقاً يتابع نشاطه الهدام .

اللعى

هربت الطيور من سمائنا ، وكف الاولاد عن اللعب في
الحارات ، وتحول غناء العصافير السجينة في الاقفاص
الى شهيق خافت مرتجف ، وبدأ القطن المعتم يختفي
من الصيدليات ، فهاهي ذي يا أيها السادة جيوش
تيمورلنك تطوق مدينتنا غير أن الشمس لم يصبها
الذعر وظلت تشرق كل صباح .

ونحن رجال المدينة ، لم تشحب وجوهنا انما ابتسمنا
برباطة جأش وحمدنا الله الذي خلقنا رجالا ذوي

لحي ولم يخلقنا نساء بلا لحي ، ثم عقدنا اجتماعاً
للتشاور بحثاً عن خلاص . وكان أول المتكلمين شاباً
نزقا يعمل بائعاً للملابس نسائية ، وقد صاح بحماسة :
« لنحارب » .

فوثبت عليه تواء نظرات الازدراء ، فلاذ بالصمت ،
واضطرب وجهه الى الاحمرار خجلاً ، وعندئذ نهض
صاحب أكبر لحية في مدينتنا ، وتكلم بلهجة رصينة :
« الحرب لا يحتاج اليها الا من كان ليس موجوداً ،
ونحن - والله الحمد - ذوو لحي ، اذن نحن موجودون » .
فتعالت فوراً الاصوات محبذة مؤيدة ، وتقرر بعد
جدال قصير تأليف وفد يفاوض تيمورلنك ويترأسه
رجل هرم له لحية تضرب ركبتيه حين يمشي .

ولمدينتنا سبعة أبواب ، وقد خرج الوفد من أحدها ،
تتقدمه راية بيضاء ، وسار بين جنود أكثر عدداً من
النجوم والجراد ، منهمكين في التنقيب عن القمل في
ثيابهم الداخلية تاركين سيوفهم للشمس تجفف ما
علق بها من دم وطن .

ودلف الوفد بخطى متئدة وقورة الى داخل خيمة
تيمورلنك ، فاذا تيمورلنك شاب صغير السن ، له
عينان طفل وابتسامة عجوز .

رئيس الوفد : « نحن ننشد السلام ، ومدينتنا لك
دونما حرب ولكن مدينتنا صغيرة وفقيرة لا تملك
ذهباً ولا بترولاً ، ونساؤنا كالماعز ويسعدنا الخلاص
منهن » .

تيمورلنك : « أنا أكره اراقه الدماء ولا أبغي ذهباً
أو نساء جميلات ولكني علمت أن الحلاقين في مدينتكم
جياع بسبب حرصكم على تربية لحاكم ، وهذا ظلم
أستنكره خاصة وان حياتي مكرسة لنصرة المظلومين
ونشر العدالة في أرجاء الارض ، فالانسان يجب ألا
يجوع » .

فاستولت الدهشة على أعضاء الوفد ، وتبادلوا
النظرات الحائرة .

تيمورلنك : « لن ترحل جيوشي عن مدينتكم الا بعد
أن تحلقوا لحاكم وتزدهر أعمال الحلاقين » .
رئيس الوفد : « ما تطلبه لأمر خطير ولا بد لنا من
الرجوع الى المدينة قبل اعطاء جواب نهائي » .
تيمورلنك : « أما أن تحلقوا لحاكم وأما أن تهلكوا ..
اختاروا » .

فران الصمت والرعب على أعضاء الوفد ، وبدأت
لهم الحياة في تلك اللحظة أمراً حسناً، فالسماء عميقة

الزرقعة ، والورد الاحمر أجمل من مواويل يرددها
صوت عاشق معذب ، والصرخات الاولى للأطفال
تنبت في الدم عشبا أخضر ، وفم المرأة المرتعش قمر
يذبح الليالي بمدية من فضة ، غير أن أعضاء الوفد
ما لبثوا أن تخيلوا أنفسهم واقفين أمام المرايا
يحدقون الى وجوههم حليقة بلا لحي ، فطفى عليهم
الاستنكار والسخط ، وتحول الموت آنذاك الى سمكة
حمراء تتألق تحت شمس من ذهب .

وتكلم رئيس الوفد وهو يشعر أن رجال مدينتنا
جميعا يصفون بخشوع ، فقال بصوت بارد : « غداً
تختار مدينتنا مستقبلها » .

وعاد الوفد الى مدينتنا ، وردد على مسامعنا ما قاله
تيمورلنك ، فعمّ الغضب ، وصاح واحد منا : « ما
الفائدة اذا ربحنا الحياة وخسرنا اللحي ؟ ! » .

وفي اليوم التالي ، هجمت جيوش تيمورلنك على
مدينتنا ، فدكّت الاسوار ، وحطمت الابواب ،
وذبحت الرجال كلهم .

وهكذا أتيح لتيمورلنك أن يحملق بتشف الى جبل من
رؤوس الرجال ، وكانت الوجوه صفراء ملطخة
بالدم ، ولكنها كانت باسمه فخورة بلحاها ، ولم

تعبس - كما قيل - وينأى عنها فرحها وزهوها الا
لحظة أمر تيمورلنك الحلاقين بقتلها .
وهكذا يا أيها السادة هزمنا دونما ثأر ، وجللنا عار
لا يمحوه أي دم .

النسيان

وفد على المدينة رجل غريب ، وجاب طرقاتها زارعا
الرعب حيثما حل . كان عجوزاً مجعد الوجه ، ذا
صوت خشن أبج ، وكانت الكلمات تتدفق من فمه
حاملة النذير بأن الارض موشكة على الدمار ، ولم
يبق لها من العمر سوى زمن قصير ثم يقبل الطوفان
ويهلك الاحياء جميعا .

ودب الرعب بين أهل المدينة ، وأيقنوا أن الموت لايد
قادم ، فشعبت وجوههم وعلماها الوجوم غير أنهم

اكتسبوا جرأة وشجاعة غريبتين فلم يعد الملك وجنده
أمراً يخشى، وامتنعوا عن دفع الضرائب غير مكتسبين
بالسجن والتعذيب والمشائق .

ودهش الملك أشد الدهشة لتبدل أحوال رعيته ،
وحار في تفسيره ، فكلف وزيره بتقصي الامر .
عاد الوزير بعد أيام ، وقال للملك : « انهم يعتقدون
أن الموت قادم » .

فقال الملك متعجباً : « الموت قادم ؟ ! » .

فأجاب الوزير قائلاً : « ثمة رجل غريب جعلهم
يؤمنون أن الموت قادم » .

فغضب الملك ، وصاح : « احضروا ذلك الغريب
فوراً » .

فابتسم الوزير ، وقال : « انه في سجن من سجون
مولاي » .

وأحضر الغريب ذليلاً مهاناً مقيداً بالسلاسل الحديدية
وقد رمقه الملك بنظرة متفحصة فضولية ثم قال له :
« أنت من ينشر الشائعات القائلة ان الهلاك سيجتاح
مملكتي ؟ » .

فأجاب الرجل الغريب : « ما أقوله ليس شائعة بل
الحقيقة . لم يبق من الانسان سوى اللحم والعظم ،

وقد حان أوان هلاك الجسد الشرير ، ولا شيء
يستطيع انقاذه من الموت » .

فقال الملك بهدوء : « ما قلت له هو الحق فعلا ، فلا شيء
يستطيع انقاذك من الموت » .

والتفت الى الجلاد الذي يقف قرب حاملا سيفه ذا
النصل المحدود ، وقال له مشيراً بسبابته الى
الغريب : « اقطع رأسه » .

فأهوى الجلاد بسيفه فوراً على عنق الغريب ،
فتدحرج الرأس على الأرض ثم تبعه الجسد الذي
تخبط لحظات ثم همد .

وعندئذ تنهد الملك بارتياح ، وقصد الحديقة ،
وهناك استدعى الملكة وأمرها بالعودة بجواره ثم
سألها : « أي نوع من الازهار تحبين ؟ » .

فأشارت الملكة الى قمها ، وقالت : « القرنفل الاحمر » .
فأمر الملك أن تقطع أشجار الحديقة ، وأن يزال
جميع أنواع الورد ثم أن تزرع الحديقة كلها قرنفلا
أحمر اللون .

ولقد نما القرنفل الاحمر فيما بعد ، فابتهجت الملكة

ابتهاجاً عظيماً اذ كانت الحديقة تتوهج بنور قرمزي
كلما جنحت الشمس للافول . وابتهج الملك أيضاً ،
فالذهب تزايد في خزائنه ، ونسيت رعيته الموت .

عباد الله

فرح الحفاة ، فالسحب كانت رحيمة وتحب الاحسان الى عباد الله المعوزين ، فأمطرت أحذية من مختلف المقاييس غير أن عبد الله بن سليمان كان نائما فلم يفرح اذ لم يظفر بحذاء ، وظلت قدماه حافيتين . وهكذا فقد حذق عبد الله بن سليمان الى أحذية الناس السائرين في الطرقات بينما يفتربه الحسد . والحسد وقانا الله منه أصل البلاء ، وهو كما تعلمون شر عظيم والمرء الحسود ينال ما يستحق من عقاب ،

فالله ساهر لا تغفى عليه خافية ، لا يهمل ولا يمهل .
لقد ولد عبد الله بن سليمان حافيا ، وترعرع حافيا ،
ويسير حثيثا الى القبر بقدمين حافيتين ولكن ابليس
اللعين خزاه الله وسوس في أذنيه وزين له أن يصير
من عباد الله مالكي الاحذية ، فلم يرفض عبد الله بن
سليمان اغراء ابليس انما خضع له . ولا بد أنكم
تعلمون أن ابليس ذو وجه يخلو من الوسامة ، وله
قرنان وذيل .

ولم يكن عبد الله بن سليمان يملك من النقود ما يكفي
لشراء حذاء ، ولذا لم يتردد في اللحاق برجل حذاؤه
جميل لامع الجلد ، ثم انتهر فرصة سيره في طريق
فرعية تخلو من المارة ، فانقض عليه بخنجره المحدودب
النصل الذي ورثه عن أبيه ، وطلعه في صدره طعنة
واحدة ، فهوى الرجل في الحال كحجر ثقيل وارتطم
بالارض ، فسارع عبد الله بن سليمان الى الركوع
بجواره محاولا انتزاع الحذاء من قدميه .

وفي تلك اللحظة مرت دورية من رجال الشرطة ،
فقبضت على عبد الله بن سليمان الذي لم يجرؤ على
انكار فعلته البشعة ، فالخنجر ملطخ بالدم ، والرجل
الممزق الصدر يتخبط في دمه وتتحشرج أنفاسه ،

وقد أشار الى عبد الله بن سليمان معلنا أنه هو قاتله .

حدث ما حدث في يوم السبت ، فقضى عبد الله بن سليمان يوم الاحد في السجن ، واقتيد الى المحكمة في اليوم التالي ثم أعيد الى السجن في اليوم نفسه ، وبقي فيه حتى يوم الجمعة . ولا بد أنه كما تعلمون قد أجهش بالبكاء ، نادما تائبا ، وطلب من الله المغفرة وحسن الختام ، ولعن ابليس الوسواس الخناس .

وفي يوم الجمعة أفاق الناس من نومهم ، وتناولوا طعام الافطار بشهية ثم تمطوا وتشاءبوا بتكاسل غير أن بعضهم أدى تمرينات رياضية ، فالرياضة كما تعلمون مفيدة للغاية وتنشط الدورة الدموية .

وما أن تعالت أصوات المؤذنين فيما بعد داعية الى صلاة الظهر حتى لبي الرجال النداء وغادروا بيوتهم قاصدين المساجد ، وهناك أدوا صلاة الظهر ثم طالبوا الله في ختامها بمنحهم ما يبتغون لانهم من عبيده الصالحين المتقين .

وعندما انتهت صلاة الظهر غادر المصلون المساجد ، وساروا في الطرقات مشدودي القامات ، وكانت وجوههم مطمئنة راضية ، وأحذيتهم تضرب الارصفة

ببهجة . وعندئذ اقتيد عبد الله بن سليمان الى ساحة واسعة ترابية الارض ، ويطوقها الجند المسلحون بالبنادق .

وبادر الناس الى الوقوف خلف الجند ، وراحوا يتزاحمون ويتصايحون . وأوقف عبد الله بن سليمان في وسط الساحة ، وأوثقت يداه خلف ظهره ثم جاء رجل ذو لحية بيضاء طويلة ووقف بالقرب منه ، وبدأ يقرأ في ورقة صفراء .

وحين انتهى الرجل الملتحي من القراءة ، دلف الى وسط الساحة رجال عديدون يرتدون الثياب البيض . « - من هؤلاء ؟ » .

« - أهل القتل رحمه الله » .

وابتدأ الرجال يطوفون حول عبد الله بن سليمان المقيد اليدين . الله أكبر . الله أكبر .

وأطلقت امرأة ما زغاريد مديدة حادة في اللحظة التي انقض فيها الرجال على عبد الله بن سليمان منتضين خناجرهم المحدودة النصال .

وترنح عبد الله بن سليمان بينما كانت الخناجر تغرز في لحمه ثم تسحب منه بحركات غاضبة حتى صار جسمه كله ثقوباً يتدفق منها الدم بغزارة . ولم

يستطع الصمود طويلا فسقط على الارض . وجثا
الرجال متحلقين حوله ، وتابعوا تسديد الطعنات الى
جسده ذي القدمين الحافيتين .
وبعد قليل حمل عبد الله بن سليمان الى سيارة
الاسعاف كتلة لحم ممزقة تقطر دما .
وهكذا كما ترون دحر ابليس ، ودفن عبد الله بن
سليمان حافي القدمين في حفرة وأهيل فوقه التراب ،
وكانت نهايته عبرة للضالين الذين لا يريدون أن
يظلوا حفاة حتى موتهم .

النابالم النابالم

يمشي وليلى في الشوارع قطين مذعورين ، فما
تبقى من المحاربين ينتظر مقدم الموت في غرف
المستشفيات ، والثياب المفسولة معلقة على شرفات
الابنية رايات بيضاء ترفرف تحت شمس حيران .
وارتعدت شفتاه وهو يتمتم متسائلا : « ألن ينجو
أي واحد منهم ؟ » .
فأجابت ليلي على الفور : « سيموتون موتا بطيئا .
ليتك تبصرهم يا أحمد . ليسوا بشرا . كتل لحم

محترقة سوداء ، لها رائحة لن تنساها حتى بعد أن تموت » .

ونكس أحمد رأسه قليلا وأبصرهم : نوعا جديدا من مخلوقات الارض ، تسير واطئة القمر والورد . وتابعت ليلى قائلة : « البارحة دخلت الى الغرفة امرأة عجوز من الريف ، تبحث عن ابنها الجريح فلم تعثر عليه وهمت بالخروج ، عندئذ سمعت صوتا يناديها . صاحب الصوت كتلة سوداء منتفخة تخلو من أي ملامح بشرية عدا العينين . لم تبك أو تصرخ . دنت من السرير بادية الغبطة وجلست على طرفه وحيث ولدها بحرارة . سألته عن صحته ، ولم تنتظر سماع جوابه انما طفقت تتحدث . اخوته الصفار كالغفاريت يتضاربون باستمرار ويتراشقون بالحجارة ويكسرون الصحون وزجاج الشبائيك ويشدون ذيل القطة . والده امتنع عن التدخين . اضحك . ستصير خالا . أخته المتزوجة ستلد بعد شهرين . صهرك يريد بنتا أما أختك فتريد صبيا . أبوك طلب من أختك حسما للمخلاف أن تلد صبيا وبنثا . أراد الابن أن يضحك ، فتجمد جلد وجهه وتشقق توا ونزف دما أصفر » .

انفجرت القنبلة دونما دوي ، وغمر أحمد السائل
الناري ، فقال ليلى بلهجة خشنة : « كفي عن
الحديث » .

فرمقته ليلى بدهشة ثم قالت بسخرية : « أمرك
مطاع . البارحة شاهدت نجمة تشتري سندويشة ثم
تركب عربة من فضة يجرها أمير اسمه الليل .
أعجبك الحديث أم أسكت ؟ » .

فلم يفه بكلمة ، وتأملها مبتسماً وهي في ثيابها
الشبيهة بملابس الجنود : امرأة جميلة عذبة ، لكنها
كانت في تلك اللحظة سيفاً صارماً مدحوراً .

تنهدت ليلى ثم قالت : « كم أنا متعبة يا أحمد » .
« — هيا نسترح عندي في البيت » .

فهزت رأسها رافضة عرضه ، فقال أحمد حانقاً :
« الحب ليس مشياً في الشوارع ومشاهدة أفلام
وحديثاً عن المستقبل فقط » .

ظلت صامتة . وانفجرت القنابل في يوم من أيام
المستقبل ، وغرق أحمد في سائلها الناري ، وتقلص
وجهه خاضعاً لعذاب طاع .

قالت ليلى بلهجة وديعة : « زعلت ؟ » .
فأجاب فوراً : « ستدخلين يوماً الى غرفة من غرف

المستشفى ، وحين تهمين بالخروج سأناديك فتأتين
وتجلسين على طرف سريري وتتحدثين عن الكتب
والافلام . »

فأمسكت بيده قائلة : « أسكت . ما هذا الحديث ؟ » .
فقال لها بلهجة شرسة متحدية : « اتركي يدي لئلا
يراك أحد ويخبر أهلك » .

تحطم باب السجن ، وماتت الام ونصائحها ، ومات
الاب كاره البنات اللواتي لا يجلبن للعائلة سوى
العار والفضيحة .

« — ألسنت خائفة ؟ » .

فلم تتخل يدها عن يده . وغمر الفرح يده الخشنة
ذات الاصابع الطويلة ، واضمحل عذابها المنبثق من
الحنين الضاري الى اليد الانثى . وسارا صامتتين
سعيدتين على الرغم من أن ما تبقى من المحاربين
يحتضر في غرف المستشفيات .

وسارا أمدا طويلا حتى بلغا مفرق طرق ، وعندئذ
توقف أحمد عن السير ، وأشار بيده الى بناية عتيقة
صفراء اللون ، وقال : « أسكن هناك في غرفة على
السطح . سأسبقك » .

وتركها دون أن يسمع جوابها ، وصعد درج البناية

راكضا ، وفتح الباب بيد مرتعشة ، ودلف الى الداخل وهو يلهث متعبا ، وجلس على حافة السرير ، وأغمض عينيه . عارية سيبرها ، وحينئذ ستتلاشى شمس حزيران ، ويندفع الليل الى الطرقات كطلق ناري ، الليل الذي يملك ملايين النجوم ، وأحس وهو يترقب مرتجفا انه موشك على الموت .

وبعد قليل ، سمع حركة ، ففتح عينيه بلهفة ، فاذا ليلى تغلق الباب وهي تضحك ، فتنهذ بارتياح ، وسألها : « لماذا تضحكين ؟ ألم تعجبك غرفتي ؟ » . « — رجل عجوز في الطابق الثالث حملق الي كأنه لم يبصر امرأة في حياته » .

« — له لحية ؟ » .

« — له لحية طويلة وظهر مقوس » .

« — هذا صاحب البناية » .

وظل جالسا على حافة السرير يحدق اليها مبهورا وهي تدنو منه . وتلاقى الفمان مخلوقسين جائعين تواقين الى الفرع . وفي تلك اللحظة احرقت الارض ثياب الحداد ، وغنى أبنائها للعشب الاخضر ، وانتحر الاعداء ، وتحولت قنابلهم الى ورد أحمر .

ورنّ جرس الباب . وظل الفمان متلاصقين غير أن
جرس الباب دأب على الرنين بالحاح .
وفتح أحمد الباب ، فألقى أمامه رجلا عجوزا له لحية
طويلة ، فتصنع الابتسام وقال بفتور : « أهلا
وسهلا » .

فسعل العجوز مر بد السحنة ثم قال : « اسمع يا جارنا
حين قبلت أن أؤجرك هذه الغرفة اشترطت عليك أن
لا تحضر إليها أي امرأة » .
« - هي خطيبتي » .

« - خطيبتك ؟! تشرفنا . عليها أن تغادر البناية
حالا . بنايتي تسكنها عائلات محترمة » .
« - لا يحق لك التدخل في شؤون غيرك » .
« - البناية بنايتي ولا أسمح لاحد أن يجعلها مأوى
للعاهرات » .

« - لا تسب والا ندمت » .
« - ماذا تقول ؟ أتهددني ؟ الحكيم لا ينفع معك .
كلمة أخيرة . اذا لم تغادر تلك المرأة البناية فورا ،
فسأطلب الشرطة » .
« - هيا افعل ما تشاء » .

وصفق أحمد الباب بعنف ، واستدار ليجد ليلى جالسة

على طرف السرير شاحبة الوجه .

وهمست قائلة : « هل أذهب ؟ » .

فهز رأسه بالرفض ، وجلس على مقعد يتطلع اليها
أسيان . وتخيل النساء ينجبن أطفالهن كتل لحم
منتنة محترقة .

وتساقطت قنبلة اثر قنبلة ، ودمرت المقاهي والمآذن
والمدارس والمستشفيات ومخادع النوم ، وأحرقت
الليل والمطر غير أن أحمر أمر بقذف المزيد من
القنابل .

جوع

لم يكن أحمد ملكاً وقد تنقل من مقهى الى مقهى دون أن يقابل أحدا يعرفه ، ولم يجد مفرا من أن يقصد صديقه الرسام الذي كان شديد الفقر .

ورحب الرسام بأحمد . وكان كريم الخلق ، سخيا ، فرسم على ورق أبيض دجاجة سمينة مشوية ، وقال لأحمد : « هذا هو الطعام الوحيد الذي أملكه » . فضحك أحمد مبتهجا ، وأكل الدجاجة بشهية ، ولكنه تمنى لو كانت مغموسة في الزيت الممتزج بالشوم

المسحوق ، ثم مسح فممه بظهر يده وهو يقول :
« الحمد لله » .

وشكر صديقه الرسام بحرارة ، وصمت هنيهات ثم
أضاف وهو يبتسم ابتسامة مأكرة : « بودي لو
أسكر » .

« - لا » .

« - لماذا لا ؟ » .

« - أنا ضد الخمرة » .

« - جرعة صغيرة فقط » .

« - لا فائدة من التوسل فكل انسان يجب أن يكون
له عدو ما وأنا عدوي الخمرة » .

« - الخمرة لا تضر » .

« - لا فائدة في التوسل فلن أغير موقفي » .

فحنق أحمد على صديقه البخيل ، وغادر مرسمه
متضايقا أشد الضيق ، وسار في الشارع تحت شمس
آب عجوزا عمره آلاف السنين ، وردد بصوت مرتفع:
« آه يا أمي » .

ولم يكد يمشي قليلا حتى ترنح وهمّ بالسقوط ،
فأغمض عينيه باعياء ، فتوارت الشمس وعمت
الظلمة ، وعندئذ سارعت أيد مجهولة وعاونته على

الصعود الى احدى المركبات ، وسمع أناسا يتهايمسون :
« مولانا الملك أحمد مريض » .

وسارت المركبة ، ولم يسمع أحمد صوت دواليبها ولا
صوت سنايك الجياد . وتوقفت المركبة بعد حين ،
فأحس أحمد بقوة مباغطة ، فنهض ونزل من المركبة ،
فبادر أشخاص كثيرون الى الانحناء له . ودلف الى داخل
قصر كبير ، يحيط به الخدم والجند .
« - أنا جائع » .

وجلس أحمد على مقعد وثير ، فأسرع الخدم
وأحضروا طبقاً كبيراً ، ووضعوه أمامه قائلين :
« هذا أفخر ما في المطابخ الملكية » .

وأزاح أحمد الغطاء عن الطبق ، ففوجيء بطفل
صغير حي ، فاقشعر جسده ، وعزم على الفرار غير
أن يديه امتدتا ببرود الى الشوكة والسكين ، واقتطع
بالسكين جزء من لحم الذراع ، وأطبقت الاسنان
بنهم على قطعة اللحم الطرية الدامية بينما كان
الطفل يعمل عويلاً حاداً .

وأقبلت امرأة ترتدي ثياباً سوداء ، وصاحت بصوت
متهدج : « أكلت ولدي » .

فقال أحمد ببرود : « ستنجبين غيره » .

« - وكيف أنجب ولداً دون رجل ؟ » .

« - الرجال كثيرون » .

فجثت المرأة على ركبتيهها هاتفة : « امنحني رجلاً » .
فتكلم أحمد ، وقال وهو يشير بيديه الى الرجال المحيطين به : « لك أن تختاري أي رجل تشائين » .
فأخذت المرأة تتفحص الرجال ملياً ، ثم قالت : « لقد اخترت الرجل الذي أريد » .

« - من هو ؟ » .

« - أنت » .

وكان باستطاعة أحمد أن يأمر بقطع رأسها غير أنه كان في تلك اللحظة فرحاً للغاية ، فنهض وأمسك يدها وقادها الى إحدى الغرف . وما ان أغلق الباب خلفه حتى سارعت المرأة تطوق عنقه بذراعيها مطلقة ضحكة مأكرة ثم تحولت الى أفعى سوداء ، والتفت حول عنقه ، وشدت الضغط عليه ، فصاح أحمد مستغيثاً ، فهرعت أمه واحتضنته بلهفة قائلة له : « هيا اشرب الدواء » .

فدس رأسه في صدرها بحركة مفعمة بحنين قديم جارف . وبدأ ألمه بالزوال شيئاً فشيئاً . وفتح عينيه فاذا به جالس على كرسي في دكان حلاق ، يحيط به

أناس عديدون ، وكان وجهه مبتلا بالماء . فأدرك على الفور ما حدث . وكان الحلاق رجلاً أشيب الشعر ، ابتسم لأحمد بود وقال له : « اغمي عليك بينما كنت تسير في الشارع » .

فنهض أحمد واقفاً . عندئذ قال الحلاق متسائلاً : « هل تستطيع السير ؟ » .

فأحني أحمد رأسه بالاجاب ، ثم غادر دكان الحلاق ، وعاود المسير وحيداً في الشارع . وتوقف بعد قليل حين اعترض طريقه رجل كهل وابتدره متسائلاً : « أتعرف بيت الدكتور بشير البارودي ؟ » .

فأجاب أحمد بالنفي ، فقال الرجل الكهل بلهجة موبخة : « وكيف لا تعرف عيادته ؟ ! انه دكتور مشهور جداً » .

فابتسم أحمد ، وتابع مسيره بخطى بطيئة متوغلاً في طريق فرعية ، تنتصب على جانبيها أبنية كثيرة . ودلف أحمد الى داخل دكان بقال ، وسأل البقال : « أتعرف بيت الدكتور أحمد النظامي ؟ » .

« — لم أسمع بهذا الاسم من قبل » .

« — انه طبيب أطفال » .

وفكر البقال لحظات ثم قال : « لم أسمع بمثل هذا

الاسم من قبل » .

« - انه طبيب أطفال . سألت عنه في عيادته فلم أجده فيها ، وقالت الممرضة انه موجود في بيته الكائن في هذا الشارع . أرجوك . ابني الصغير مريض وفي حالة خطرة » .

« - لم أعرف دكتوراً بهذا الاسم من قبل » .
فهر أحمد رأسه أسفاً ، واستأنف السير بوجه كئيب .
وأبصر خادماً صبية تخرج من إحدى البنايات ،
فاستوقفها قائلاً : « هل تعرفين بيت الدكتور أحمد النظامي ؟ » .

فقالت الخادم : « أحمد النظامي .. أحمد النظامي » .
« - نعم .. اسمه أحمد النظامي . طبيب بارع .
زوجي مريضة وهي بأشد الحاجة اليه » .
فقالت الخادم وهي تشير بيدها الى بناية صفراء اللون : « انه يسكن هناك ولا أعرف في أي طابق » .
فشكرها أحمد بامتنان ثم قصد البناية الصفراء ،
ودلف الى داخلها ، وقرع جرس الباب في الطابق الاول
ففتح الباب فوراً ، وأطل رأس امرأة هرمة ، فقال
لها أحمد : « هنا منزل الدكتور أحمد النظامي ؟ » .
« - لا .. انه يسكن في الطابق الثاني » .

فارتقى أحمد الدرج الى الطابق الثاني ، وقرع جرس الباب . وانتظر حيناً من الوقت . ثم انفتح الباب عن رجل مشعث الشعر ، فبادر أحمد يسأله : « هنا منزل .. » .

فقاطعه الرجل قائلاً : « انه يسكن في الطابق الثالث » .

فقال أحمد بدهشة : « من يسكن في الطابق الثالث ؟ » .
« — ألا تريد منزل الدكتور ؟ انه يسكن في الطابق الثالث » .

فصعد أحمد الى الطابق الثالث دون أن تبارحه الدهشة ، وهناك ضغط على زر الجرس فلم يسمع أي رنين .

اذن الجرس معطل . فضرب بقبضته خشب الباب ، فانبعث من الداخل صيحة امرأة تقول : « اذهبي يا عفريتة وافتحي الباب » .

وبعد قليل فتحت الباب فتاة صغيرة السن شقراء ، وتطلعت الى أحمد باستغراب ، فقال لها أحمد :
« أين أحمد ؟ » .

« — أحمد ؟ » .

« — الدكتور أحمد » .

« - الدكتور أحمد ؟ ! » .

« - نعم .. الدكتور أحمد النظامي » .

« - الدكتور أحمد النظامي يسكن في الطابق الاول » .

« - شكراً يا أنسة . عدم المؤاخذه لاني أزعجتك .

هل زوجك موجود ؟ » .

« - زوجي ؟ » .

« - ألسنت متزوجة ؟ » .

فنظرت الفتاة اليه بذعر ، و صفقت الباب ، فأسرع أحمد يهبط الدرج بسرعة ، وهرول في الشارع وهو يتخيل ان رجال الشرطة سيقبلون لاعتقاله وسيضربون رأسه بأحذيتهم الثقيلة .

وتنهذ بارتياح حين أصبح داخل غرفته ، ووقف أمام المرأة فشاهد شاباً ذا وجه أصفر ، فقال له : « أهذا أنت يادكتور أحمد ؟ بحثت عنك طويلاً . أنا مريض - افحصني » .

فقال الدكتور : « أنت مريض ؟ حسناً . أنا أوصيك بما يلي : كل لحماً وتفاحاً » .

« هل يلائمني أكل التفاح ؟ »

« يجب أن يكون لون التفاح أصفر مشرباً بالحمرة » .

« والأجاص ؟ » .

« واحدة منه تكفي » .

« والعنب ؟ » .

« غير ضار . كل منه ما تشاء » .

فأحنى رأسه . وبحث في غرفته عن شيء يؤكل ، فوجد نصف رغيف يابس كان مخفياً تحت الكتب التي تغطي سطح الطاولة ، فبلله بالماء ثم أكله ببطء ثم تمدد على السرير ، وسرعان ما استسلم للسبات ، فشاهد في أثناء نومه امرأة جميلة ، فاحتضنها بحنان وضاووة ، وكان لحمها خبزاً أبيض ساخنًا .

الشرطي والحصان

أوقف أبو مصطفى عربته بمحاذاة الرصيف ،
وربت بيد كبيرة متشققة على رأس الحصان ثم قصد
الدكان القريبة ، وابتدأ يحمل على ظهره الاكياس
الملاى بالحطب ، وينقلها الى العربة .
وكان الحصان حائقاً دونما سبب . وقد تبدد غضبه
قليلا حين عثر على قطعة من قشور البطيخ ، فمضى
يقضمها بسكينة .
وتنبه فجأة الى أن ثمة ولداً صغيراً يقف على مقربة

منه ، ويرمقه مبتسماً . فقال الحصان لنفسه :
« أنا لا أعرفه وسأرفسه اذا دنا مني . سأرفسه
رفسة قوية تكسر رأسه » .

وانتهى الحصان بعد حين من مضغ قشرة البطيخ ،
فانتابه الاسف لانتهاؤها ، وراح يتطلع بغيظ الى
الولد وهو يقول لنفسه : « سأرفسه » .

وكان أبو مصطفى في تلك اللحظات ما زال منهمكاً في
نقل أكياس الحطب ووضعها على سطح العربية .
وأحس الحصان بالتعب ، فقال لنفسه متدمراً :
« العدالة مفقودة » .

وكان الحصان قد ولد في المدينة ، وقضى حياته كلها
في طرقاتها المفروشة بالاسفلت ، ولم يغادرها مطلقاً .
وكان يعرف أن أجداده القدامى كانوا يمرحون طلقاء
عبر البراري الشاسعة حيث لا أبنية فيها ولا جدران
من حجر ، ولكنهم ماتوا جميعاً .

وانحنى الولد ، والتقط قشرة بطيخ كانت بمنأى
عن الحصان ثم اقترب على مهل ، فهمّ الحصان
بالتراجع غير أنه تريت متشجعاً . ومد الولد قشرة
البطيخ نحو فم الحصان . فتردد الحصان لحظة خاطفة
ثم تلعفها دهشاً ، وطفق يعضها بغبطة ، وسمح

للولد بأن يربت على عنقه بيد أنيسة صغيرة .
وأتم أبو مصطفى نقل أكياس الحطب الى العربية .
وعندما لاحظ وجود الولد قرب الحصان صاح به :
« ابتعد يا قرد » .

ثم لوح بالسوط ، مطلقا صيحة أمرة بالمسير، فاندفع
حينئذ الحصان الى الامام ، يجر العربية الثقيلة
بتباطؤ .

وسارت العربية عبر طرقات عديدة ، وبلغت بعد حين
شارعا عريضا تنتصب الابنية الحجرية على جانبيه
ولم تكد العربية تتوغل حتى اعترض طريقها واحد
من رجال الشرطة ، فصرخ أبو مصطفى بالحصان
بصوت ممطوط : « هش » .

قال الشرطي : « ألا تعرف أن مرور العربات ممنوع
في هذا الشارع ؟ » .

فقال أبو مصطفى « أعرف » .

« — ولماذا جئت اذن من هنا ؟ »

« — الحصان .. أنظر .. الحصان تعبان جداً ، وإذا
مررت في هذا الشارع فسأوفر على الحصان مشياً
كثيراً » .

فغمر الحصان حنان عارم . وقال الشرطي : « سير

العربات ممنوع في هذا الشارع . انه للسيارات
وللناس الذين يسرون على أقدامهم فقط » .
قال أبو مصطفى : « أعرف » .

ولمق شفثيه بلسانه ، وأردف قائلاً : « الحصان
تعبان وسينقطع رزقي اذا هلك ، وأموت جوعاً
ويموت أولادى .. لي أربعة أولاد » .

« - ارجع . ولن أعاقبك لمخالفتك النظام والقانون »
« - لي أربعة أولاد يأكلون حتى الحجر » .

وأطلق أبو مصطفى ضحكة قصيرة جافة وكأنها مدية
صغيرة شرسة ، ثم أضاف قائلاً : « سأقول الصدق ..
أنا لا أخاف على الاولاد انما أخاف على أمهم » .
فقال الشرطي متسائلاً بفضول : « ولماذا تخاف
عليها ؟ » .

وكانت الاشجار خضراء على جانبي الشارع ، وتمتد
في الأعلى سماء رحبة زرقاء . وأجاب أبو مصطفى :
« أخاف أن يأكل الاولاد أمهم اذا جاعوا » . أسنانهم
فضيعة » .

ومرت سيارة تسير بسرعة كبيرة ، فنفخ الشرطي في
صفارته ، فلم تتوقف السيارة ، واستطاع الشرطي
أن يلمح رقم لوحها قبل أن تنأى عن بصره ، فسجله

الشرطي والحصان

أوقف أبو مصطفى عربته بمحاذاة الرصيف ،
وربت بيد كبيرة متشققة على رأس الحصان ثم قصد
الدكان القريبة ، وابتدأ يحمل على ظهره الاكياس
الملاى بالحطب ، وينقلها الى العربية .
وكان الحصان حانقاً دونما سبب . وقد تبدد غضبه
قليلا حين عثر على قطعة من قشور البطيخ ، فمضى
يقضمها بسكينة .
وتنبه فجأة الى أن ثمة ولداً صغيراً يقف على مقربة

منه ، ويرمقه مبتسماً . فقال الحصان لنفسه :
« أنا لا أعرفه وسأرفسه اذا دنا مني . سأرفسه
رفسة قوية تكسر رأسه » .

وانتهى الحصان بعد حين من مضغ قشرة البطيخ ،
فانتابه الاسف لانتهاؤها ، وراح يتطلع بغيظ الى
الولد وهو يقول لنفسه : « سأرفسه » .

وكان أبو مصطفى في تلك اللحظات ما زال منهمكاً في
نقل أكياس الحطب ووضعها على سطح العربة .
وأحس الحصان بالتعب ، فقال لنفسه متذمراً :
« العدالة مفقودة » .

وكان الحصان قد ولد في المدينة ، وقضى حياته كلها
في طرقاتها المفروشة بالاسفلت ، ولم يغادرها مطلقاً .
وكان يعرف أن أجداده القدامى كانوا يمرحون طلقاء
عبر البراري الشاسعة حيث لا أبنية فيها ولا جدران
من حجر ، ولكنهم ماتوا جميعاً .

وانحنى الولد ، والتقط قشرة بطيخ كانت بمنأى
عن الحصان ثم اقترب على مهل ، فهمّ الحصان
بالتراجع غير أنه تريت متشجعاً . ومد الولد قشرة
البطيخ نحو فم الحصان . فتردد الحصان لحظة خاطفة
ثم تلقفها دهشاً ، وطفق يمضغها بغبطة ، وسمح

للولد بأن يربت على عنقه بيد أنيسة صغيرة .
وأتم أبو مصطفى نقل أكياس الحطب الى العربية .
وعندما لاحظ وجود الولد قرب الحصان صاح به :
« ابتعد يا قرد » .

ثم لوح بالسوط ، مطلقا صيحة أمره بالمسير، فاندفع
حينئذ الحصان الى الامام ، يجر العربية الثقيلة
بتباطؤ .

وسارت العربية عبر طرقات عديدة ، وبلغت بعد حين
شارعا عريضا تنتصب الابنية الحجرية على جانبيه
ولم تكد العربية تتوغل حتى اعترض طريقها واحد
من رجال الشرطة ، فصرخ أبو مصطفى بالحصان
بصوت ممطوط : « هش » .

قال الشرطي : « ألا تعرف أن مرور العربات ممنوع
في هذا الشارع ؟ » .

فقال أبو مصطفى « أعرف » .

« — ولماذا جئت اذن من هنا ؟ »

« — الحصان .. أنظر .. الحصان تعبان جداً ، واذا
مررت في هذا الشارع فسأوفر على الحصان مشيا
كثيراً » .

فغمر الحصان حنان عارم . وقال الشرطي : « سير

العربات ممنوع في هذا الشارع . انه للسيارات
وللناس الذين يسرون على أقدامهم فقط » .
قال أبو مصطفى : « أعرف » .

ولمق شفتيه بلسانه ، وأردف قائلاً : « الحصان
تعبان وسينقطع رزقي اذا هلك ، وأموت جوعاً
ويموت أولادى .. لي أربعة أولاد » .

« - ارجع . ولن أعاقبك لمخالفتك النظام والقانون »
« - لي أربعة أولاد يأكلون حتى العجر » .

وأطلق أبو مصطفى ضحكة قصيرة جافة وكأنها مدية
صغيرة شرسة ، ثم أضاف قائلاً : « سأقول الصدق ..
أنا لا أخاف على الاولاد انما أخاف على أمهم » .
فقال الشرطي متسائلاً بفضول : « ولماذا تخاف
عليها ؟ » .

وكانت الاشجار خضراء على جانبي الشارع ، وتمتد
في الأعلى سماء رحبة زرقاء . وأجاب أبو مصطفى :
« أخاف أن يأكل الاولاد أمهم اذا جاعوا » . أسنانهم
فضيعة » .

ومرت سيارة تسير بسرعة كبيرة ، فنفخ الشرطي في
صفارته ، فلم تتوقف السيارة ، واستطاع الشرطي
أن يلحظ رقم لوحاتها قبل أن تنأى عن بصره ، فسجله

على غلاف دفتره . والتفت الى أبي مصطفى محتقن
الوجه غيظاً ، وقال له : « هيا ارجع » .

« — دعني أمر هذه المرة فقط » .
فقال الشرطي بصرامة : « ألم تسمع ما قلت ؟
ارجع » .

« — مرة واحدة فقط » .
« — ارجع . القانون قانون ، ولا فائدة من التوسل » .
« — الحصان تعبان » .
« — هيا ارجع » .
« — الله يحفظك لأمك » .

« — الله لا يحفظني ، أنا لم أخترع القانون . أنا
أنفذ أوامر صادرة الي ، وأنت يجب أن تطيع هذه
الاورامر » .

فلم يفه أبو مصطفى بكلمة انما تخيل القانون
مخلوقاً ضخماً له آلاف الايدي : القانون يأمر الشرطي
فيطيع الشرطي ، ويأمر الشرطي أبا مصطفى و يجب
أن يطيع أبو مصطفى الاوامر .

ووقف أبو مصطفى متردداً هنيهات ، فصاح به
الشرطي : « ارجع . واذا لم ترجع حالا فستندم » .
فاتجه أبو مصطفى نحو العربية ، وكان غضب الحصان

عندئذ قد بلغ الذروة ، فجمع قوته كلها ، واندفع
جامحاً الى الامام ، فبوغت الشرطي بالعربة المندفعة
نحوه ، وحاول أن يقفز الى الرصيف ، فلم يتمكن ،
وصدمه الحصان ، فسقط على الارض منطرحاً على
ظهره ، ووطأت صدره سنابك الحصان ثم مرت فوقه
عجلات العربة وتخضبت بالدم الاحمر .

ودهش الحصان حين رأى صاحبه لم يبتهج انما
امتلكه الذعر والوجوم ثم انطلق يركض هارباً .
وبعد لحظة توافد الناس مهرولين ، وتحلقوا حول
العربة ، يتألق في عيونهم الخوف الممتزج بالشهوة
الخفية ، كأن الشرطي المسحوق ليس الا جسد
امرأة جميلة .

ولم يتفرق الناس الا عندما حضر رجال الشرطة ،
وبادروا الى اعتقال القاتل .

وكان القاضي عادلاً ، فسيق الحصان في فجر أحد
الايام الى ساحة رئيسية خيل الى الحصان أنها ما تبقى
من البراري .

ووقف الحصان مبتهجاً لانه قبل وصوله الى الساحة
قد اجتاز شوارع عريضة كان يمنع من السير فيها
من قبل ، ولكن بهجته لم تدم طويلاً اذ تدلى بعد حين
مشنوقاً .

العرس الشرقي

عاد صلاح الى البيت ، وقذف كتبه ودفاتره الى الارض بحركة حانقة . فسألته أمه : « ما بك ؟ » .
فأجاب على الفور : « سئمت المدرسة » .
فقالت الام متسائلة بحنو : « ولماذا سئمت المدرسة ؟ » .
فصمت صلاح لحظة ثم قال : « أريد أن أتزوج » .
فأوشكت الام أن تطلق زغاريد عالية مديدة لولا نظرة صارمة بدت في عيني الأب ، فارتبكت ، وقالت مخاطبة الاب بوجل : « هل لك اعتراض ؟ » .

فلم يأبه الاب لسؤالها انما التفت نحو صلاح وقال
له بصوت قاس : « أنت ولد عاق ولا تستحق أن
أوافق على زواجك » .

فقال صلاح بضراعة : « سأكون منذ هذه اللحظة
ابناً باراً مطيعاً » .

« - ستصلي » .

« - سأواظب على الصلاة » .

« - ستصلي خمس مرات في اليوم » .

« - سأصلي خمس مرات » .

« - ستصوم شهر رمضان » .

« - سأصوم شهر رمضان كله » .

« - لن تسهر خارج البيت » .

« - لن أسهر وسأنام كل ليلة باكراً » .

« - لن تسكر » .

« - لن أسكر ، وسأذهب الى مكة سيراً على الاقدام » .

ففرح وجه الاب ، وقال : « تعال قبل يدي » .

فدنا صلاح من أبيه ، وأحنى رأسه ، وقبل يده

بخشوع ، فقال الاب : « هيا قبلها ثلاث مرات » .

فأطاع صلاح ، وقبل يد والده ثلاث مرات . وبعدئذ

ضحك الاب بابتهاج ، وقال : « والآن قل لي من تريد

أن تتزوج ؟ » .

« - سأتزوج من الفتاة التي تنال اعجاب أبيي وأمي » .

فتزايدت غبطة الأب ، وقال : « حسنا .. هكذا يتكلم الابناء الطيبون » .

وقالت الام مخاطبة صلاح : « كانت أمنيته الوحيدة أن أرى أولادك قبل موتي وأولاد أولادك » .

وقال الاب للام : « هيا ساعديني . أي فتاة سنختار له ؟ » .

ففكرت الام هنيهات ثم قالت : « هيفاء بنت الجيران فتاة جميلة » .

قال الاب بمرح : « أعرفها .. أعرفها . لقد وفقت في الانتقاء » .

وقالت الام موجهة كلامها الى صلاح : « أتعرفها ؟ » . فأجاب صلاح متسائلا : « كيف سأعرفها ؟ » .

ونفضت الام واقفة ، فقال الاب : « الى أين ؟ » . « - سأحضر هيفاء » .

« - كيف ؟ » .

« - سأكذب على هيفاء وأطلب منها أن تأتي لمساعدتي في الطبخ » .

وغادرت الام الغرفة ، وعندئذ أطلق الاب ضحكة عالية ، وقال لصلاح : « أه ياملعون .. اذن تريد الزواج ؟ لقد أحسنت اختيار الوقت فالشتاء موشك على المجيء » .

وسئل الأب ، وفرك كفيه بحماسة ، ثم أردف قائلاً : « ما أجمل النوم لصق اللحم الساخن » .

فقال صلاح برصانة : « أنا لا أحب النوم مع النساء » .

قال الاب بدهشة : « اذن .. لماذا تريد الزواج ؟ ! » .

فابتسم صلاح بغموض ، ولم يفه بكلمة . وساد

الصمت في الغرفة حتى رجعت الام وبصحبتها هيفاء .

وكانت هيفاء في السادسة عشر من عمرها ، بيضاء ،

عيناها سوداوان ، وشعرها أسود ، ذات قامة ممشوقة

مكتنزة الجسد ، وقد دلفت الى الغرفة باستحياء ،

وجلست مرتبكة على أحد المقاعد .

وأشارت الام الى الاب خفية طالبة منه أن ينهض

ويترك الغرفة ، فأطاع رغبته وهو يبتسم بمكر .

وتبعته الام بعد قليل . وقالت وهي تغادر الغرفة :

« سأرجع بعد قليل » .

وتأمل صلاح هيفاء ملياً ثم قال لها على حين غرة :

« هل أنت بارعة في حل مسائل الحساب ؟ » .

- فهزت رأسها بالايجاب ، فابتسم صلاح ، وقال :
- « هل أخبرتك أمي بما عزمت عليه ؟ » .
- « - لم تخبرني بشيء » .
- « - ألم تقل لك اني سأتزوج ؟ » .
- « - لا » .
- « - ألم تنبئك بمن سأتزوج ؟ » .
- « - لا » .
- « - أريد أن أتزوج منك .. فهل لديك اعتراض ؟ » .
- فتصنعت هيفاء الخجل ، وقالت بصوت خافت مرتعش : « أنا لا رأي لي . الرأي لأهلي » .
- فقال صلاح : « أنت بنت عاقلة . وستساعديني في حل مسائل الحساب » .
- « - طبعاً سأساعدك » .
- فاغتبط صلاح ، وصاح بصوت ممطوط عال :
- « أمي أمي » .
- فدخلت الام الى الغرفة بسرعة ، وقالت : « ماذا تريد ؟ » .
- « - أعجبتني هيفاء وأريد أن أتزوج منها الليلة » .
- « - انتظر أياماً » .
- « - لن أنتظر » .

« - انتظر اذن حتى المساء ريثما يعود والد هيفاء من عمله » .

وراقب صلاح بحسرة هيفاء وهي تنهض وتغادر الغرفة عائدة الى بيتها .

وبدأت الأم تتزين استعداداً لزيارة أهل هيفاء بينما وقف الاب أمام المرأة ، وطفق يتحدث اليها متخيلاً أنها والد هيفاء . وضاق صلاح ذرعاً بالجلوس ، فأخذ يتجول في باحة البيت . ونظر الى الشمس بسخط :
« هيا ارحلي بسرعة » .

« لماذا ؟ »

« سأتزوج حين يقبل الليل » .

« لن أرحل بسرعة » .

« سأرجمك بالحجارة » .

« هيا افعل فلن تصل الي حجارتك » .

وبعد حين ابتدأت الشمس تلملم أنوارها الصفراء وهي تتعمد التباطؤ بينما كان صلاح يمشي في باحة البيت بخطى قصيرة سريعة .

وما ان غابت الشمس حتى كان والدا صلاح يتجهان نحو بيت أهل هيفاء . وفتح لهما الباب قبل أن يطرقاه ، ورحب بهما . وأدخلت أم صلاح الى غرفة

النساء . واقتيد والد صلاح الى غرفة الضيوف ،
فبقي وحده هناك لحظات ثم أقبل والد هيفاء مرحباً
محيياً . وتحدث الاثنان عن الطقس وعن الفساد
المتفشي بين الشبان . وبغته قال والد صلاح : « أريد
أن أحدثك عن أمر مهم » .

« - تفضل » .

« - أريد أن أزوج ولدي صلاح من بنتك هيفاء » .
ولاذ بالصمت هنيهات ثم أضاف متسائلاً : « ما
رأيك ؟ » .

فابتسم والد هيفاء ، وقال : « وهل هذا أمر يحتاج
الى سؤال ؟ أنا بالطبع موافق فأنتم من خير الناس » .
« - كم تريد ثمنها ؟ » .

« - ابنتي جميلة ، متعلمة ، وسأقبل أن أبيعها
اكراماً لك بخمسة وثلاثين ليرة لكل كيلو » .
« - هذا ثمن باهظ » .

« - لو لم نكن جيران لطلبت أكثر » .

« - وأنا أيضا سأطلب منك أن تخفض الثمن لاننا
جيران » .

« - أقسم بالله بأني لم أطلب أي زيادة فابنتي جميلة
وتجيد القراءة والكتابة والطهي » .

« - تستحق ابنتك أغلى ثمن ، ولكنك تعلم أن الحصول على الليرة الواحدة في هذه الايام أمر شاق وصعب » .

« - أعتقد أن السعر الذي عرضته معتدل ومناسب » .

« - نحن فقراء ويجب أن تراعي ظروفنا » .

« - الغنى في الأخلاق الحميدة » .

« - صحيح أن الغنى في الاخلاق الحميدة ولكن .. »

فتنهذ والد هيفاء ، وقال : « ماذا تريد مني أن أفعل ؟

انها ابنتي الوحيدة ومن واجبي الاهتمام بمستقبلها .

حسناً . سأخذ ثلاثين ليرة ثمننا لكل كيلو » .

فرحب والد صلاح بالسعر الجديد . وأرسلت هيفاء

على عجل الى السوق ، وهناك وضعت على ميزان

كبير ، فبلغ وزنها خمسين كيلو . ودفع والد صلاح

الثمن بينما كانت الزغاريد تتعالى ، ثم اقتيدت

هيفاء الى الغرفة المخصصة لصلاح ، وأقفل الباب

باحكام غير أن الجارات تراحمن حوله بغية النظر من

ثقب القفل للاطلاع على ما يجري داخل الغرفة .

وقال صلاح لهيفاء : « أما زلت موافقة على مساعدتي

في حل مسائل الحساب ؟ » .

« - سأساعدك » .

« - لا تخبري أبي وأمي » .

« - لن أخبر أحداً » .

فضحك صلاح مبتهجاً بينما اتجهت هيفاء نحو باب الغرفة ، ودست في ثقب القفل قطعة من القطن ثم ابتدأت بخلع ثيابها بحركات امرأة ناضجة ، شديدة الثقة بنفسها ثم استلقت على السرير ، وقالت لصلاح بصوت آمر غريب النبرة : « تعال . هيا اقترب مني أريد أن أخبرك بسر » .

« - ما هو ؟ تكلمي » .

« - اقترب . لا تخف . لا أريد أن أتكلم بصوت عال لئلا يسمعنا أحد » .

ووجد صلاح نفسه منساقاً الى الدنو منها . وأجبره صدرها العاري على أن يلصق وجهه به ، ثم تلقف فمه حلمة نهدها الفتى بينما كانت تجتاحه رغبة ضارية في التهامها .

ولم يأكل صلاح النهد انما أجهش بالبكاء حائراً بعد لحظات حين لم يمنحه النهد حليماً دافئاً .

الاطفال

في الليل

كان الطفل مستسلماً للسبات حين صعدت الجنية من مكان ما مظلم تحت الارض ، وهمست قائلة بصوت رقيق : « سأخذك الى البحر » .
فقال الطفل بحيرة : « أنا لا أعرف ما البحر » .
قالت الجنية : « البحر طفل يحب الماء ، وله عينان زرقاوان » .
وعندئذ سمع الطفل هدير ماء غاضب ، فهمس

بضراعة : « لا أحب الماء » .

« — ماذا تحب اذن ؟ » .

« — أحب البستان » .

فضحكت الجنية بهزء ، وقالت متسائلة : لماذا تحب البستان ؟ » .

« — البستان أخضر » .

فقالت الجنية باصرار : « سأخذك الى البحر » .

وأقبل البحر ، ولم يكن طفلاً انما كان رجلاً طویل القامة ، عريض الكتفين ، نبتت في صدره أعشاب خضراء . وارتعش الطفل مذعوراً ، ولم يجسر على البكاء . واقترب البحر من الجنية . وحين احتضنها بساعدين ذهبیین ، اضمحلا فجأة كأنهما ملح رش فوق الماء . وأفاق الطفل من نومه يرتعد هلعاً ، وبكى بصوت مرتفع . ولم تسمع أمه النائمة أصوات نحيبه فظل حيناً من الوقت يبكي وحيداً وهو مستلق على ظهره فوق سرير الصفيح ثم عاد شيئاً فشيئاً يستسلم للنوم ، فضحك البستان ، واخضرت الاشجار، وحطت على الاغصان عصافير صغيرة، وراحت تغرد ، وأنشد النهر أنشودة مبتلة بالماء ، وفرح الطفل غير أن فرحه لم يدم طويلاً فقد رجعت الجنية لتهمس باصرار :

« سأخذك الى البحر » .

وكانت الجنية آنئذ امرأة دميمة ، تتقد الكراهية في عينيها الكبيرتين ، فأطلق الطفل صرخة رعب عالية ، أيقظت أمه من نومها ، وجعلتها تهرع اليه مرتاعة ، ثم تمددت لصقه ، وضمته الى صدرها بحنان ، وراحت تهدئه حتى اطمأن وكف عن النحيب ، وبدأت تهدده بصوت خافت ، ووعدته أنه اذا نام فستجلب له طيرين من الحمام الابيض .

وكان البستان في تلك اللحظة امرأة مضطجعة على ظهرها ، تضحك مبتهجة . وطارت عبر الفضاء الازرق حمامتان ثم لحقت بهما حمامة ثالثة صغيرة ، وكانت لا تحب الماء .

مغيب القمر

قال الطفل لأمه : « البارحة في الليل نزل القمر من أعلى وشرب كوباً من الماء » .

فابتسمت الام وقالت : « عندما كنت صغيرة السن مثلك رأيت مرة القمر يقطف برتقالة » .

« — هل يحب القمر البرتقال ؟ » .

فلم تجب الأم ، فأردف الطفل متسائلاً : « الى أين يذهب القمر في النهار ؟ » .

« - يختبئ » .

« - أين ؟ » .

« - لا أحد يعرف مخبأه » .

« - لماذا يختبئ ؟ » .

« - نحن ننام في الليل أما القمر فينام في النهار » .

فلاذ الطفل بالصمت ولم يفه بكلمة غير أنه صمم منذ تلك اللحظة على البحث عن مخبأ القمر حين يصبح كبير السن .

اليد الصغيرة

كان للطفل قطعة بيضاء ، وكان يحلو له أن يتحدث معها . وفي يوم من الايام ماعت القطعة ، وقالت له : « اشتر لي كوخاً » .

« - أنت تحبين العيش في الطرقات ولست بحاجة الى كوخ » .

« - أنا أحب التجوال ليلا في الطرقات ، أما في النهار فأحب النوم في مكان هادئ أمين » .

قال الطفل : « أنا صغير ، لا أملك ثمن كوخ » .

« - اذن ابن لي كوخا » .

« - أنا صغير ويدي صغيرتان لا تستطيعان بناء كوخ » .

ففضبت القطعة ، وكفت منذ تلك الهنيهة عن التحدث مع الطفل . ولقد اضطر الطفل فيما بعد الى أن ينشد صديقاً له بين الاطفال الصغار .

غيوم

ضحك الطفل طويلاً دونما سبب ، فسألته أمه بفضول : « لماذا تضحك ؟ » .

قال الطفل : « هل يعرف النهر اسمي ؟ » .

فأجابت الام : « النهر لا يتكلم وهو يعرف أسماء الضفادع والاسماك » .

قال الطفل بثقة : « النهر يعرف اسمي ، وهو يحبني » .
« — لا تقترب من النهر . انه يختطف الاطفال الصغار » .

فهز الطفل رأسه بحيرة فقد سبق له أن سمع النهر يهمس باسمه بحنو . وكان صوته فائق العذوبة رقيقاً كعبير الياسمين .

وظل الطفل صامتاً هنيهات ثم قال لأمه : « سرقت غيمة » .

فقالت الام : « الكذب عيب » .

« — أنا لا أكذب . سرقت غيمة » .

وأشار الطفل بيده الى أعلى حيث الغيوم متجمعة عبر

الفضاء ثم قال : « سرقت واحدة من هذه الغيوم » .
« — كيف ؟ الغيوم عالية جداً وأنت صغير » .
« — قلت للغيوم : تعالي ، فأنحدرت من أعلى » .
وبسط الطفل راحته ، وكان عليها قطعة من القطن
الابيض ، فضحكت الام وقالت : « هل هذه غيمة ؟ » .
فقال الطفل بصوت مفعم بالبهجة : « لم أستطع أن
أسرق الغيمة كلها فهي كبيرة جداً فاكتفيت بخطف
جزء منها » .

صديقتي الشمس

لم يستطع الطفل أن ينجح في محاولته أن يجابه
ضياء الشمس بعينين مفتوحتين ، فأحنى رأسه مكتئباً
وقال لأمه : « الشمس تكرهني » .
فقالت الام : « الشمس تحب كل الناس » .
فقال الطفل باصرار : « الشمس لا تحبني » .
ورحل النهار بخطى متئدة مصطحباً معه شمسه ذات
الوجه الشاحب . وهطلت الامطار غزيرة في الليل
ثم أقبل الصباح أبيض رطباً .
وصاح الطفل فرحاً حين عثر في باحة البيت على
عصفور صغير يرتعش من البرد وقد بلله المطر ،
وسارع الى اطعام العصفور من فتات الخبز غير أن

العصفور ظل ضعيفا يرتجف من الصقيع والخوف .
وبدا للطفل أن العصفور قد يموت في أي لحظة ،
فامتلكه الاضطراب والجزع ، ولكن ما ان رحلت
السحب الرمادية عن السماء ، وعادت الشمس الى
الظهور حتى بدأ العصفور ينطنط بمرح ، ولم يمض
سوى وقت قليل حتى طار العصفور مرفراً بجناحيه ،
فتطلع الطفل الى الشمس بعينين امتزج فيهما الخوف
والشكر والوداعة ثم ابتسم لوجهها الذهبي ابتسامة
من اختار ما سيحبه حتى النهاية .

الغزال السجين

سار الطفل في طريق حافلة بالضجيج، وكانت أصابعه
صغيرة خائفة ، تتشبث بلهفة بيد أمه . وبغته توقف
عن السير وصاح : « ما هذا ؟ » .
وأشار بيده نحو باب دكان لبيع الدجاج والطيور .
وكانت تقف هناك غزالة يلتف حول عنقها طوق
جلدي يمنعها من الافلات والهرب .
قالت الام : « هذه اسمها غزالة » .
« - من أين أتت ؟ »
« - من الصحراء » .
« - ما هي الصحراء ؟ » .

« - الصحراء مكان واسع جداً ، أرضه مغطاة بالرمل » .

« - ما هو الرمل ؟ » .

« - الرمل حبات صغيرة جداً ، ناعمة ، صفراء اللون » .

« - لماذا أتت الغزالة الى هنا ؟ » .

« - جلبها الصيادون لبيعها » .

« - وماذا يفعل بها من يشتريها ؟ » .

« - يذبحها فليحمها لذيق الطعم » .

فتأمل الطفل الغزالة ملياً ، وكانت تقف مدعورة رشيقة ذهبية اللون ، عيناها وديعتان تطل منهما رغبة في البكاء .

وارتجف الطفل ، وأحس أنه كان في يوم ما غزالا يعدو عبر صحراء فسيحة ، فأجهش بالبكاء .

وكانت الصحراء آنئذ في مخيلة الطفل أرضاً فسيحة جداً ، تغطيها رمال صفراء ، ولا يعيش فيها سوى الغزلان والصيادين .

آخر الرايات

راقبت حذائي بحنو بينما كان ماسح الاحذية الكهل
منهمكاً في تنظيفه وتلميعه ، فقد اشتريته قبل شهرين
بخمسة وثلاثين ليرة ، ولن أستطيع الآن بيعه بالثمن
نفسه .

هاهم بشر الارض يتركون أعمالهم جميعاً ويتحلقون
حولي صامتين ، وأنا رجل أضع عمامة بيضاء على
رأسي ، ولحيتي سوداء طويلة ، وصوتي الوقور
الذي يخالطه التهديد والتأثر ، يصعد عالياً :

« يا أبنائي .. الاحذية كالنساء » . وطلعت علي رغبة
في سماع صوتي ، فقلت لماسح الاحذية ان العام
المنصرم كان عام خير . فقال لي ان يوم القيامة دنا .
فقلت له ان ما يقوله غير صحيح فالعام المنصرم كان
عام خير فقططنا أنجبت خمسة أولاد . فقال لي ان
القطط لطيفة ، وأخبرني أنه ربي مرة قطة أدركت
مدى فقره فامتنعت عن الاكل من طعامه وأصبحت
تسرق طعامها من عند الجيران . فضحكت وقلت له
اني أعرف قطة أحبت قطعاً وظلت مغلصة له ثلاث
سنوات . فقال لي ان الله كريم . فقلت له ان ما
رويته لأمر مدهش . فقال لي انه يجب علي ألا
أدهش فالحيوانات مخلوقات لطيفة خلقها الله ،
وعيبها الوحيد هو أنها تمشي على أربع .

فلذت آنذاك بالصمت حتى انتهى من مسح حذائي ،
فنقدته أجرته ثم انطلقت أجوب الشوارع وأنا
أتخيل الناس المارين فيما حولي يمشون على أربع .
وقد ضحكت بغبطة غير أنني قطبت جبيني عندما
لاحظت أن بائع حلوى صغير السن يرمقني بريبة ،
فدنوت منه واشتريت ثلاث قطع من الحلوى غير أن
نظرة الريب لم تختف من عينيه فحنقت عليه ،

وتابعت سيري بخطى سريعة ، وسلكت طريقا فرعية ،
وهناك طوحت بقطع الحلوى الى الارض ، فأسرع أحد
رجال الشرطة وقبض علي ، واقتادني الى مخفر
الشرطة ، وهناك فحصوا قطع الحلوى فاكتشفوا أنها
مسمومة . والتف حولي رجال عديدون ، وطلبوا
مني ذكر اسم عدوي، فقلت لهم انه ليس لي أي عدو .
فرمقني الرجال بنظرات استنكار وهزع ، ونصحوني
بقول الصدق وعدم اللجوء الى اللف والدوران ،
وأضافوا بأنهم يعرفون كل شيء عني لانني مراقب
منذ زمن طويل . فأطلقت صيحة دهشة واستغرب
غير أنهم لم يأبهوا لها ، وأحضروا رجلا أنيق الثياب
ذا وجه حليق ، وقالوا لي انه عدوي الذي كنت أريد
القضاء عليه عن طريق اطعامه قطع الحلوى المسمومة
فصرخت قائلا ان ما يقولونه مناف للحقيقة . وعندئذ
تكلم الرجل الغني فقال انني هددته بالقتل اذا لم
يوافق على وزاجي من ابنته . فقلت للرجال انني
أحب ابنته وهي تحبني أعظم الحب . ثم صرخت
مخاطباً الرجل الغني بغضب : « لقد حطمت حبنا
وحطمت علينا أن نفترق . ماذا يضر لو تزوج الفقير
من بنت الغني ؟ الرجل هو من تتوفر فيه المقدرة على

انجاب الاطفال وجعلك جداً » .

فتبادل الرجال نظرات ذات مغزى ، فتابعت الصراخ :
« يجب أن يزول التفاوت بين الغني والفقير » .
وفي تلك اللحظة ترك بشر الارض كلهم أعمالهم
وتحلقوا حولي صامتين ، فقلت لهم بصوت ترتعش
فيه رغبة في البكاء : « يجب عليكم يا اخواني أن
تهدموا الجدار الذي يفصل الانسان عن الانسان » .
فطلب مني المحققون أن اسكت ثم أمسروا باحضار
حلاق . وبعد قليل دلف الى الغرفة رجل يرتدي ثياباً
بيضا ، ويحمل حقيبة سوداء .

لم يتفوه بكلمة انما وضع الحقيبة على سطح الطاولة
ثم فتحها وأخرج منها منشفة بيضاء وربطها حول
عنقي ثم أخرج من الحقيبة موسى وشحذها على
قطعة من الجلد مدهونة بالزيت ثم دنا مني وطلب
الي عدم التحرك أو التنفس ، فامتثلت لرغبته ،
فذبطني بحركة خاطفة وسقط رأسي على الارض ،
فتألمت ونهضت واقفاً ، فقال لي الحلاق : « نعيماً » .
فلم أستطع الرد ، وهرولت خارجاً من مخفر الشرطة ،
واندفعت أركض في الشوارع قاصداً البيت .
وعندما بلغت البيت ، صاحت أمي : « أين رأسك ؟ » .

فلم أجب لأنني كنت بلا لسان ، فأضافت قائلة : « اذن
لن تستطيع الذهاب الى طبيب الاسنان ؟ » .
فاكتأبت للغاية لانني لن أتمكن اليوم من الذهاب الى
طبيب الاسنان لمعالجة سني المنخورة غير أنني بعد قليل
ابتهجت اذ أدركت أنني لم أعد بحاجة الى الذهاب الى
دكان العلاق .

خضراء

وقفت المرأة في الحديقة ، يطل عليها من الاعالي
قمر من حجر أصفر . وكانت قدماها اللتان تطآن
التراب عاريتين . وتناهى الى سمعها غناء خشن ناء،
فأحنت رأسها بانكسار . وكان الخوف في تلك اللحظة
طيراً أبيض مذبوح العنق .

وارتجف جسد المرأة ، واغرورقت عيناها بالدموع ،
وابتدا لحمها يتصلب شيئاً فشيئاً ، ونمت جذور في
باطن قدميها وشقت التراب الجاف وراحت تتغفل

فيه بينما كانت المرأة ما تزال تبكي منكسة الرأس .
وبغثة ندت عن المرأة صرخة ذعر خافتة ، ورفعت
ذراعيها الى أعلى محاولة التخلص من التراب غير
أن ذراعيها تيبستا وبقيتا مرفوعتين ، وتمايل
الجسد يمنة ويسرة ، ونضبت دموع العينين رويداً
رويداً ، وتحول اللحم الى خشب اكتسى بقشرة
متشقة . وأقبل الشتاء فيما بعد ، وغسلت أمطاره
المرأة المثبتة في التراب ، ثم أتى الربيع ، فبدأت تنبت
أوراق خضراء صغيرة في ذراعي المرأة وشعرها ثم
ما لبث أن انبثق زهر كثير .

وسطعت شمس الصيف على الحديقة ، وعندئذ أقبل
صاحب الحديقة ، وكان رجلاً هرمًا ، فألفى أشجار
التفاح في حديقته مثقلة الاغصاب بالثمار عدا شجرة
واحدة لم يتحول زهرها الى تفاح ، فاستاء منها ،
وسارع الى احضار فأسه ، وراح يهوي بها على جذع
الشجرة ، وتوالت ضرباته حتى سقطت الشجرة على
الارض ميتة .

الهزيمة

رجع خليل السامر الى غرفته ، معني الظهر ، متعب
لقدمين ، واستلقى على فراشه ، وارتجف مقروراً
وحيداً ، ثم استسلم للنوم بينما كانت للريح خارج
الغرفة أصوات ذئبة هرمة جائعة .

وتحولت الريح بعد حين الى يد مرتعشة الاصابع ،
وفتحت باب الغرفة ، لتدلف الى الداخل ملكة سوداء
الشعر ، لقامتها كبرياء الرمح الغاضب ، وأمرت أن
يعذب خليل السامر حتى الموت ، فتعالت على الفور

أصوات مبحوحة تردد :

« سنعذبه » .

« سنضع ملحاً في عينيه » .

« سنشوي لحمه » .

« سنسحق عظامه » .

وارتعد خليل السامر مذعوراً ، ثم تحول ذعره الى دهشة عارمة حين أبصر الملكة السوداء الشعر تجثو على ركبتيهما فجأة ، وتصيح متوسلة : « اهرب اهرب » .

فقال خليل السامر متسائلاً : « الى أين أهرب ؟ » .
فبدأ على وجه الملكة ألم طاع ، وتهاوت على الارض ميتة ثم تحولت الى فراشة ، واختفت في فراغ أسود .
وظل خليل السامر ينتحب دونما دموع حتى أفاق من نومه ذات صباح ، وخيل اليه وهو يتمطى متثائباً أنه نام مائة سنة وأن معدته حقيبة فارغة عتيقة ، فبادر الى مغادرة البيت . وكان للبيت باب من خشب ، صفقه خلفه بشدة ، وسار في شارع له رصيفان ، ترين عليه السكينة . ولم يقابل في أثناء سيره لا رجلاً ولا طفلاً ، ولا امرأة على شرفة . وكانت الارصفة مغطاة بطبقة من أوراق الاشجار الصفراء ،

والسيارات تقف بمحاذاة الارصفة مهمة يجللها
الغبار . وواظب خليل السامر على السير بخطى
مرتبكة متباطئة حتى بلغ أحد المطاعم . وحين همّ
بالدخول اليه ، بوغت برؤية جرد ضخمة الحجم يمتطي
دراجة ، فابتسم وتطلع بدهشة الى السماء الزرقاء
الصفافية ، ثم دلف الى داخل المطعم ، وهناك شاهد
العديد من الجرذان ، وكانت كلها ضخمة الحجم ،
تجلس خلف مناضد خشبية ، تتناول طعامها بحركات
رصينة .

واختار خليل السامر منضدة منزوية ، وجلس خلفها
يغمره الخجل والارتباك ، وثبت نظراته على الغطاء
الوسخ ، وأخذ يحصي البقع المتناثرة عليه ، فألفاها
ست بقع .

وبعد قليل جاء الجرسون ، وكان جرذا ضخما يرتدي
بزة سوداء وقميصا ناصع البياض ذا ياقة منشأة .
وقد تأمل خليل السامر بنظرات مفعمة بالدهشة ،
ثم حنى رأسه ، وأطلق من فمه صوتا خشنا ممطوطا
أبح شبيها بنباح كلب موشك على الموت .
فقال خليل السامر : « أريد كوب حليب ورغيفين
وقطعة جبن وقليل من الزبدة » .

فحنى الجرسون رأسه ثانية ، ومشى مبتعدا عن المنضدة . وأغمض خليل السامر عينيه ، وحاول أن يتخيل طفلا أشقر الشعر ، يضحك بعذوبة ، فلم ينجح . وحاول أن يتخيل شجرة خضراء وعصفورا صغيرا وامرأة سوداء الشعر ، ففشل ثانية ، وعض بأسنانه على شفته السفلى . وعاد في تلك اللحظة الجرسون ، ووضع على سطح المنضدة صحنًا فيه قطعة لحم نيئة . فاستاء خليل السامر ، وقال بصوت حانق مرتفع : « ما هذا ؟ طلبت كوب حليب » .

فقاطعه الجرسون بصرخة نازقة ، وتابع خليل السامر قائلا : « طلبت كوب حليب ورغيفين وقطعة جبن وقليلًا من الزبدة لا لحما نيئًا » .

فنبع الجرسون ، ونبعت الجرذان الضخمة الحجم الجالسة وراء المناضد المجاورة . وكان الذباح قهقهة طويلة هازئة . فغضب خليل السامر أشد الغضب ، وحاول أن يتكلم محتجا ، فضاعت الكلمات واختفت ، ولم ينبعث من فمه سوى نباح متقطع أجش ، فأغمض عينيه لحظة ، وحينئذ أبصر ملكة سوداء الشعر تسقط ميتة ، ولم تتحول بعد لحظة الى فراشة انما ظلت ملقاة على الارض جثة صفراء .

وفتح خليل السامر عينيه بتثاقل ليبصر أمامه قطعة اللحم النيئة ، وقد بدت له بفتة شهية مغرية ، فامتدت اليها يداه ، وأطبقت عليها الاصابع بحرص ، ورفعتها الى فم مفتوح ، وابتدأت الاسنان المنخورة تحاول مضغها ، وفي تلك اللحظة دخل الى المطعم جرد أنيق الثياب ، وكان يجر خلفه طفلا أشقر الشعر ، يمشي على يديه ورجليه ، وتطوق عنقه سلسلة حديدية .

الكذب

أنهى المعلم درسه قائلاً لتلاميذه: « والآن وقد أصبحتم تعلمون أن أعظم ما في الانسان يكمن في رأسه ، فاياكم ونسيان هذه الحقيقة الرائعة » .

فتبادل التلاميذ النظرات الدهشة ، وراقبوا المعلم بفضول بينما كان يغادر قاعة الدرس مشدود القامة ، مرفوع الرأس . وظلوا لائذين بالصمت هنيهات ثم ما لبثوا أن نهضوا عن مقاعدهم وتراكموا منطلقين نحو باحة المدرسة . وهناك لم يلعبوا كماداتهم انما

تجمعوا وراحوا يتجادلون حول ما قاله المعلم .
واستمرت أصواتهم تتعالى متحمسة أشد الحماسة
حتى قرع الجرس معلناً بدء درس جديد . وعندئذ
عادوا الى قاعة الدرس ، وجلسوا على المقاعد
منتظرين قدوم المعلم بلهفة وتحفز غير أن المعلم لم
يحضر انما أقبل مدير المدرسة صارم الوجه ، وقور
الخطى ، وأخبرهم أن معلمهم أصابه صداع مباغت ،
وطلب اليهم بصوت خشن أن يقضوا وقت الدرس في
مطالعة عشر صفحات من كتاب التاريخ ، ونصحهم
بعدم التكاسل في نشدان العلم .

ولم يكد المدير يغادر قاعة الدرس حتى عاد التلاميذ
الى الجدول ثانية :

« المعلم يكذب » .

« المعلم لم يكذب » .

وصاح واحد من التلاميذ بلهجة واثقة : « الرأس
موجود فقط من أجل حمل العينين والانف والحاجبين
والشعر والاذنين » .

وطال الجدل واشتد ثم انتهى أخيراً بالاتفاق على
أن التجربة وحدها القادرة على اعطاء البرهان على
كذب المعلم أو صدقه .

واختار التلاميذ واحداً منهم ، كان أصغرهم سناً ،
ذا عينين زرقاوين وشعراً أشقر . وقد سارع الى
الاستلقاء على الارض ضاحكاً فخوراً . وبادر
التلاميذ الى فصل رأسه عن جسده بمدية مرهفة الحد
ثم حملوا الرأس ، وتطلعوا الى جوفه من ثقب العنق
المقطوع ، فلم يبصروا سوى عتمة . عندئذ سارعوا
الى احضار حجر من باحة المدرسة ، وكان الحجر
صلداً وصلباً ، ووضعوا الرأس على أرضية قاعة
الدرس ، وانهالوا عليه ضرباً بالحجر حتى تكسر .
وعندما أبصروا ما يحتوي ضحكوا بهزء ، ورمقوا
بقرف النخاع الشبيه بنخاع الخروف الذي يباع نيئاً
في دكاكين القصابين ، وهزوا رؤوسهم بأسف ، وقالوا
بثقة : « كذب المعلم » .

بعدئذ أحضروا صمغاً ، وألصقوا قطع الرأس بعضها
ببعض ثم ألصقوا الرأس بالجسد الملقى على الارض ،
وتبادلوا نظرات تنم عن انتصار أكيد ، ورددوا
ثانية : « كذب المعلم » .

ولكز أحدهم الصغير ذا العينين الزرقاوين والشعر
الاشقر ، فوثب على الفور واقفاً ، وصاح متسائلاً
بفضول : « هل كذب المعلم ؟ » .

في يوم مرح

قصدنا السوق أنا وأختي ، واخترنا محلا لبيع
الاطفال ، ودلفنا الى داخله بغطى مضطربة خجلة ،
وأخذنا نتفرج على أطفال من مختلف الاعمار ،
مستلقين على ظهورهم في صناديق خشبية صغيرة .
وفجأة هتفت أختي بفرح : « انظر » .
وأشارت بسبابتها الى طفل لا يتجاوز عمره السنتين ،
أبيض الوجه ، ذي شعر ذهبي ، وأضافت قائلة :
« سنشتريه » .

ولم تنتظر حتى تسمع جوابي انما اتجهت تواء الى
البائع ، وسألته بصوت مرتفع عن ثمن الطفل ،
فحرك شففيه دون أن أسمع صوتاً غير أن أختي
صاحت : « لا لا . هذا ثمن غال جداً » .

فتبسم البائع ، وأقسم بحرارة أن الثمن معتدل جداً ،
فبادرت أختي تقسم محمرة الوجه أن الثمن ليس
معتدلاً على الإطلاق . وانهمك الاثنان في مساومة
طويلة انتهت أخيراً بالاتفاق ، فدفعت الثمن بينما
كانت أختي تهرع نحو الطفل ، فتحمله وتضمه الى
صدرها وتغادر المحل بخطى سريعة فتبعتها حانقاً .
وقالت لي بينما كنا نسير في الشارع : « انظر انظر . .
ما أجمله ! » .

فتطلعت الى الطفل ، ففوجئت به يحدق اليّ بعينين
صارمتين حاقدتين . وعندما بلغنسا البيت وضعت
أختي الطفل على وجه السرير ، وقالت لي : « سأذهب
لأحضر له ما يأكل » .

وما ان غادرت الغرفة حتى أدار الطفل رأسه نحوي ،
وقال لي بصوت وديع هادئ : « سأقتلك عندما
أكبر » .

فوددت لو أنهض وأهرب غير أنني لم أستطع التحرك

من مكاني .

وعادت أختي الى الغرفة بادية البهجة ، فانتهزت الفرصة ، وسارعت الى مغادرة البيت ، ومشيت في الشوارع منكس الرأس حتى أقبل الليل ، وعندئذ قصدت خمارة أحبها ، وهناك احتسيت كوؤساً عديدة من العرق ، وتحديث مع سكارى لم يسبق لي معرفتهم من قبل ، ولقد روى لي أحدهم أنه غادر السجن منذ أيام ، فسألته عن جريمته ، فأجاب أنه ذبح أخته ورمى جثتها الى النهر .

« — لماذا قتلتها ؟ » .

« — كانت شرهة لا تشبع » .

وفي آخر الليل ، عدت الى البيت ، فألفيت الطفل نائماً لصق أختي ، فحملته برفق الى المطبخ ، ووضعتة على سطح منضدة خشبية محاذراً أن يستفيق من نومه . وبحث طويلاً عن السكين قبل أن أعثر عليها . وكان حدها مثلوماً ، فوجدت مشقة وعناء في تقطيع لحم الطفل الى قطع صغيرة . فتد كان لحماً شديداً اللينة . وتنهدت بارتياح عندما انتهيت ، ووضعت قطع اللحم المبتلة بالدم في كيس من الورق . ثم غادرت البيت ،

وألقيت ما أحمل الى قطط وكلاب تراكضت خلفي وهي تموء وتنبح ، ثم سرت متجها نحو مخفر الشرطة بينما كان الوهن يدب الى ظلمة الليل .

وبدا لي مخفر الشرطة قبراً ضخماً ، فلم أرتبك أو أتردد لحظة انما دلفت باستسلام الى جوفه أمشي بخطى ثابتة بطيئة ، فاعترض طريقي شرطي ، وابتدرني متسائلاً : « ماذا تريد ؟ » .

« — أبغي مقابلة رئيس المخفر » .

« — ولماذا تريد مقابله ؟ » .

فأنبأته بفعلتي ، فاقتادني الى احدى الغرف ، وهناك وجدت رئيس المخفر يتناول طعامه بشهية وشراسة ، فأخبرته بما فعلت عارضاً يدي المملختين بالدم . وعندما لم يعد لدي ما أقوله ، لذت بالصمت مرتبكاً ، حينئذ ضحك رئيس المخفر ضحكة جعلتني أحس بأني أهوي من أعلى ، وقال لي بصوت هازئ : « اذن تكلم طفل عمره سنتان !؟ » .

فقلت بحرارة وتوسل : « أقسم بأنه تكلم ، وكان سيقتلني لو لم أقتله .. أقسم .. » .

فقاطعني قائلاً بصرامة : « اسكت . والآن ماذا تريد ؟ » .

« - أبغني أن أحال الى المحاكمة » .

« - وماذا نتوقع أن يحدث في المحاكمة ؟ » .

« - سيحكم عليّ بالموت شنقاً » .

« - أأست خائفاً ؟ » .

« - لا . لست خائفاً » .

فبدا الفيظ جلياً على وجهه ، وصاح بنزق : « ماذا أسمع ؟ أنت غير خائف من الموت ؟ » .

قلت ببرود وتحد : « نعم . أنا لا أهاب الموت » .

فابتسم بمكر ، وقال متسائلاً : « ورجال الشرطة ؟ ألا تخاف منهم ؟ » .

فلم أجب ، وساد في الغرفة صمت ثقيل ، أحسست به حيواناً مفترساً يوشك أن يشب على جسدي . وقال رئيس المخفر على حين غرة : « لماذا أنت طويـل القامة ؟ طوال القامة دائماً مثيرو شغب » .

« - هكذا ولدت » .

فمسح رئيس المخفر فمه بمنديل من ورق أبيض ، وضغط على زر جرس ، ففتح الباب حالا ، واندفع الى الغرفة خمسة رجال ، وتحلوا حولي ، يحدقون اليّ باحتقار . وقال لي رئيس المخفر : « اذن أنت لا تخاف ؟! هيا ابك » .

« - لن أبكي » .

فانقض عليّ الرجال ، وأجبروني على خلع حذائي
وجوربي . وصاح رئيس المخفر مهدداً : « سأمزق
جواربك اذا لم تبادر الى البكاء » .
قلت بضراعة : « سأبكي » .

قال رئيس المخفر : « هيا بسرعة . ابك بكاء ذليلاً » .
وصاح الرجال بأصوات خشنة متناسقة : « ابك ..
ابك » .

تذكرت حالاً أطفالاً تسطع آلاف الشموس في أصواتهم .
تذكرت المرايا المحملقة بتشف الى وجهي المتجمد .
تذكرت البيوت الدافئة المشغلة الابواب في الشتاء .
تذكرت فم امرأة . تذكرت ماء البحر وجسدي الهرم .
فاندفعت أبكي بمرارة بينما كان رئيس المخفر
والرجال يتبادلون نظرات الزهو والانتصار .

صاح رئيس المخفر : « كف عن البكاء » .
غمسحت دموعي بظهر يدي بينما أردف رئيس المخفر
قائلاً : « والآن .. هيا قلّد نهيق الحمار » .
فأطعته ونهقت بصوت خشن جاف حتى صاح رئيس
المخفر : « كفى .. والآن هيا اعترف ولا تكذب » .
فرويت له كيف ذبحت الطفل . الطفل نائم مغمض

العينين وديع . ويدي التي بكت يوما حنيناً الى شعر
امراة ، تحمل السكين . استيقظ الطفل . أدرك
ما سيحدث . لم يصرخ مستغيثاً . نظر الى المصباح
الكهربائي المتدلي من السقف وقال له بصوت حزين
زاخر بالعتاب واللوم : « لماذا تركتني ؟ » .

فضحكت بمرح غير أن السكين ضربت حنجرته
بغضب ، فانبثق الدم موسيقى حارة ووردة حمراء .
ابتسم رئيس المخفر بسرور وقال : « لو اعترفت منذ
البداية لما نلت أي أذى » .

وعندما سطعت شمس النهار ، اقتدت الى المحكمة .
ففوجئت بأختي جالسة الى منصة القاضي ، فسألتها
بصوت عال : « ماذا تفعلين هنا ؟ » .

فنظرت اليّ بازدياء . ولم تفه بحرف . وبعدئذ
نكلم رجلاً كهلاً مطالباً باعدامي ثم تكلم أشخاص
آخرون لا أعرفهم ثم نكلمت أختي بوقار فحكمت
عليّ بالموت ، فصححت بها : « هيا عودي الى المطبخ » .
فأمرني بالسكوت شرطيان ضخما الأثثة ، ثم طلبا
مني الانصراف علي أن أحضر ساعة الفجر الى الساحة
الرئيسية كي أشنق ، فغادرت قاعة المحكمة راكضاً ،
وتابعتم الركض في الشوارع حتى تعبتم وارتعيت

أرضاً ألهث بشدة ، فاذا بصوت بكاء يتناهى الى
سمعي ، فتلفت حوالى ، فأبصرت طفلاً لا يتجاوز
عمره السننتين ، فنهضت واقفاً ، ودنوت منه بلهفة ،
فكف عن البكاء، ورمقني بوداعة ماداً يديه الصغيرتين
نحوي متمتماً : « بابا .. بابا » .

فأسرعت اليه مبهور الانفاس ، وحملته ، وعدوت
قاصداً البيت ، فوجدت أختي منهمكة في غسل
الثياب . وقد شهقت فرحة عندما شاهدت الطفل ،
وبادرت تضمه الى صدرها بحنان عارم وهي تضحك
جذلى . فتنهدت بارتياح ، وجلست على كرسي
خشبي ، أحدق الى الشمس الموشكة على الأفول ،
منتظراً مقدم الفجر .

الرعد

لا تذهب الغيوم صباحاً الى المدرسة ، وأنا أمرت الشمس بآلا تشرق ، فلم تطعني ، فعزمت على الانتقام منها حين أصبح طويل القامة .

وحملت الى معلم الحساب الذي يملك وجهاً مثلث الشكل ، فانتبه اليّ ، وصاح بي غاضباً : « انهض يا ولد » .

فنهضت واقفاً بينما تابع المعلم مخاطبتي بصرامة واشمئزاز : « كف عن مسح أنفك بكم قميصك » .

فتجمدت ، فأردف المعلم قائلاً : « جاوب بسرعة ..
لدينا عشرة ملايين شخص ، شنتقنا سبعة ملايين فكم
شخصاً بقي على قيد الحياة ؟ » .
فأجبت فوراً : « لا أعرف » .
فقال المعلم بحنق : « أف ! الى متى ستظل تلميذاً
جاهلاً ؟ ! » .
فقلت له بفتور : « أنا أكره الحساب » .
فاحمر وجه المعلم ، وقال بلهجة حادة : « ها ... اذن
أنت تكره الحساب ؟ » .
وصمت لحظة متجههم الوجه ثم استأنف الكلام متسائلاً
بلهجة هازئة : « وماذا تكره أيضاً ؟ هيا أخبرنا » .
« - أكره الشتاء » .
« - وماذا تكره أيضاً ؟ » .
« - أكره الشتاء والصيف والخريف والربيع » .
« - وماذا تكره أيضاً ؟ » .
« - أكره الليل والنهار » .
« - وماذا تكره أيضاً ؟ » .
« - أكره السبت والاحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء
والخميس والجمعة » .
« - وماذا تكره أيضاً ؟ » .

- « - أكره الشمس والقمر والنجوم » .
- « - وماذا تكره أيضاً ؟ » .
- « - أكره الاغاني والقطط والعصافير » .
- « - وماذا تكره ... » .
- « - أكره الرجال أكره النساء أكره الاولاد » .
- عندئذ صاح المعلم : « اسكت . ستظل تلميذا جاهلاً » .
- فاخترعت توأً قبللة ذرية ، وطوحت بها بأقصى ما أملك من قوة ، فانفجرت ، وأشرقت الشمس على أنقاض .

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth _ Griffin

April 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth _ Griffin

